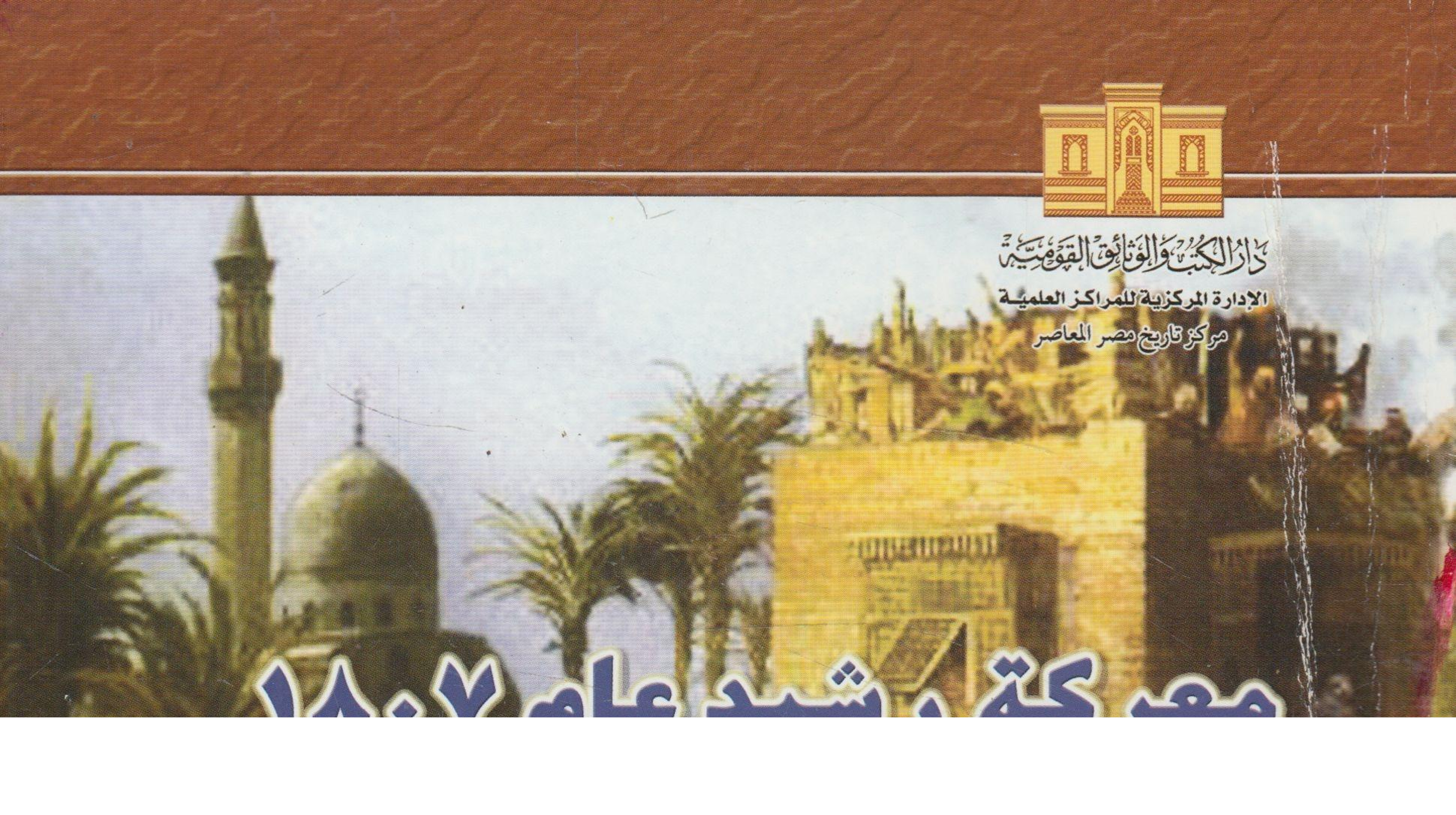

دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تاريخ مصر المعاصر

معركة رشيد عام ١٨٠٧

قرنان على مقاومة حملة فريزر

١٨٠٧ - ٢٠٠٧



الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تاريخ مصر المعاصر

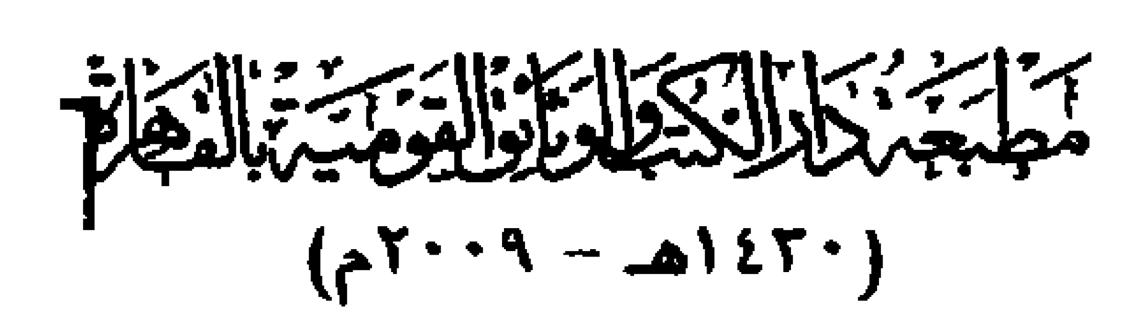
معركة رشيد عام ١٨٠٧

قرنان على مقاومة حملة فريزر
١٨٠٧ - ٢٠٠٧

أعمال ندوة
مركز تاريخ مصر المعاصر
٢٥ نوفمبر ٢٠٠٧

إشراف
أ. د. السيد فليفل

أ. د. عبد الله محمد عزباوى — أ. د. صلاح أحمد هريدى
د. نيفين مصطفى حسن سعد — د. أحمد عبد العزيز على عيسى
د. محمد حافظ دياب — د. صفاء محمد شاكر


مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة

أ. د. محمد صابر عرب

ندوة مركز تاريخ مصر المعاصر (٢٠٠٧: القاهرة).

معركة رشيد ١٨٠٧ قرنان على مقاومة حملة فريزر: ١٨٠٧ - ٢٠٠٧/ أعمال ندوة مركز تاريخ مصر المعاصر: ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٧ . ـ القاهرة : دار الكتب والوثائق القومية، الإدارة المركزية للمراكز العلمية، مركز تاريخ مصر المعاصر، 2009.

156 ص ، 24 سم.

تدمك 3 - 0617 - 18 - 977

١ - مصر - تاريخ - الحملة الفرنسية (١٧٩٨-١٨٠١) - ندوات ٢ - رشيد - تاريخ

أ - العنوان

٩٥٢,٠٢٠٦٣

---

www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٥٥٢ / ٢٠٠٩

I. S. B. N. 977 - 18 - 0617 - 3



ندوة رشيد

الآراء الواردة فى هذه الندوة تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي هيئة التحرير

الإشراف الفني

علي أحمد خليفة

كتابة كمبيوتر

سلوى فتحى

تصميم الغلاف

محمد برعى

تقـديم

بين يدى القارئ الكريم أعمال ندوة «معركة رشيد : قرنان على قهر حملة فريزر ١٨٠٧-٢٠٠٧، التى عقدها مركز تاريخ مصر المعاصر فى يوم الأحد الموافق ٢٥ نوفمبر عام ٢٠٠٧، تناولت الندوة والتى اختصت بالدراسة والبحث نصرًا عزيزًا مؤزرًا حققته جموع شعبية من أهل رشيد على واحدة من الحملات العسكرية القوية قادها قائد بحرى مشهور من رجال امبراطورية عملاقة سادت البحار ، ولم تكن تغيب عنها الشمس، حيث صارت قوة عالمية تمتد مستعمراتها فى القارات كلها، ألا وهى بريطانيا العظمى .

وإذ مر هذا العام قرنان على هذا الحدث الكبير، فما كان لمركز بحثى وطنى هدفه الحفاظ على تاريخ الوطن ، وعمله صون الذاكرة الوطنية ، أن تفلت منه المناسبة، وأن لا ينشغل بإحيائها ولفت الانتباه إليها ، إبرازًا لإرادة شعب حر أبى الخضوع والخنوع، وقاوم المحتل الغازى وأجبره على التراجع ، وذلك فى وقت كانت الدولة العثمانية وواليها على مصر «محمد على» أعجز من أن يواجها الحملة البريطانية، ولكنهما كانا أسرع مبادرة إلى استثمار النصر العزيز .

ولقد كنت حريصاً على عرض فكرة هذه الندوة على الأخ الكريم أ.د. محمد صابر عرب رئيس مجلس إدارة هيئة دار الكتب والوثائق القومية فرحب بها ترحيبًا كبيرًا ، كما رحبت بها اللجنة العلمية لمركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر برئاسة أستاذنا الراحل أ.د. يونان لبيب رزق.

ويرجع إصرارى على عقد الندوة إلى أسباب كثيرة :

أولها- قناعتى بأن فئة من الانتهازيين مسحوقى الكرامة الوطنية قد تطاولوا على ذاكرة هذا الشعب المناضل العظيم ، وحاولوا على مدار عشرات السنين كسر عزيمته، وواصلوا الضغط على الحقائق الساطعة إخفاءً وتمويهاً، وجسدوا أمام ذاكرة الأجيال الناشئة الهزائم ، وراحوا يُرضِعون الفتيان عصارة ضعفهم وخورهم . فإذا العام يكاد ينصرم ، وليس فى جعبتهم إلا النكسة ، وكأن مصر لم تحارب من بعد الخامس من يونيو١٩٦٧ حربين عظيمتين : حرب الاستنزاف، وحرب

السادس من أكتوبر ؛ وكأن مؤرخى إسرائيل الجدد منهم والقدامى لم يصفوا الأولى بأول هزيمة للدولة العبرية ، ولم يصفوا الثانية بهزيمة الساعات الست. وكأن دعاة الهزيمة لم يعرفوا من تاريخنا سوى مرور ٤٠ عاما على ٥ يونية .

ثانيها - أن يرى المرء ذكرى السادس من أكتوبر تمر دون أن يعتبرها هؤلاء مناسبة تستدعى الوقفة المتأملة لإرادة شعب واجه المحنة بصمود، وتغلب عليها، وحظى باحترام العالم حتى الأعداء منهم ومن ثم كان الرجوع لرشيد ١٨٠٧ تأصيل للاحتفاء بأكتوبر ١٩٧٣.

ثالثها - أن نوجه من خلال هذه الندوة رسالة الصمود التى بعث بها الأجداد منذ قرنين من نقطة شمالية نائية عند مجمع البحرين : النيل العظيم، والبحر المتوسط ؛ من رشيد حيث اجتمع للأهلين روح مصر الخالدة، إذ جمعوا العمل الزراعى الشاق، والصناعات والحرف الماهرة، واحتراف ركوب البحر المفتوح إلى المشرق العربى من جهة ، والدولة العثمانية من جهة ثانية ، وأوروبا من جهة ثالثة، جمعوا كل هذا إلى محبة خاصة للمحين عربيين رائعين فيهما روح الحضارة الإسلامية؛ حب النخيل والخيل والعناية بهما ، ونمط العمارة الإسلامية الذى ساد هذا البلد الأمين .

رابعها - أن أهل رشيد فيهم من الرقة ودماثة الخلق ، وروح الوداعة والسماحة ماهو معلوم ويبدو مغرياً للغزاة بالهجوم ، على اعتبار ما يغرى التجار من حرص على المال ، وإيثار للسلامة، وخلود للراحة. بيد أنهم قدموا للعدو مفاجأة مذهلة عاصفة، وقدموا أنفسهم فداء للوطن .

خامسها - أنه فى عصر الهيمنة والعدوان، وغياب دولتين عربيتين لهما مكانة مركزية فى إقليميهما : العراق فى الهلال الخصيب، والصومال فى القرن الأفريقى، الأولى بفعل العدوان الأمريكى ، والثانية بفعل الاحتلال الأثيوبى، فى هذا العصر تصبح نماذج المقاومة الشعبية ملهمة لمن كان لديه انتماء للوطن وحب للتراب .

سادسها - أن معركة رشيد أوقفت عجلة التقدم الاستعمارى البريطانى فى مصر ثلاثة أرباع القرن، وعطلت المشاريع البريطانية تعطيلاً كبيرًا حتى عام ١٨٨٢. وأعنى بهذا ضرورة وضع معركة رشيد فى إطارها الدولى ، وفى ظل حالة المنافسة البريطانية الفرنسية التى قررت مصير عشرات الشعوب ، وحولتها إلى مستعمرات منذ بداية الربع الأخير من القرن الثامن عشر .

وأكاد أقطع بأن أخذ تاريخ مصر فى إطار ذلك المربع الذى يبلغ طول ضلعه ألف كم هو خطأ علمى جسيم، فمنذ خرجت بريطانيا من الولايات المتحدة بعون فرنسي للثورة الأمريكية ، أخرجت بريطانيا فرنسا من كندا والهند وانفردت بهما، زاد استخدامها لطرق التجارة بين الشرق والغرب عبر طريق مصر وطريق رأس الرجاء الصالح ، وهذا هو الذى يفسر علاقاتها مع بعض القيادات المصرية ، ومحاولاتها للاستقلال عن الدولة العثمانية، كما يفسر حضورها فى خطوط السكك الحديدية المصرية، وفى مشروع قناة السويس، وفى حصار مصالح فرنسا فى مصر وضرب حملتها فيها، ثم محاولة العودة فكانت هزيمة رشيد .

ويهمنى فى هذا الصدد أن أشير إلى حقيقة الحملة الفرنسية على مصر ، فقد سبقتها حملة فرنسية على جنوب أفريقيا فى عام ١٧٨١ بغية احتلال رأس الرجاء الصالح ، لكن بريطانيا لحقت بها عند جزر الرأس الأخضر ودمرت أسطولها.

كما أن حملة بريطانية احتلت رأس الرجاء الصالح فى عام ١٧٩٥، وشكلت بالتالى خطرًا داهمًا على مصالح فرنسا فى البحار الشرقية، وهو ما دفعها إلى القيام بحملتها على مصر باعتبارها الطريق البديل بين أوروبا والشرق الأقصى فعملت بريطانيا على إخراجها منها، لكن الفرنسيين صمدوا فى مصر طويلاً حتى أجبرت بريطانيا على ترتيب انسحاب الفرنسيين من مصر مقرونا بانسحابها من رأس الرجاء الصالح، وهو ما ظهر جليًا فى اتفاق «إميان» ١٨٠٢ الذى نُفذَ فى العام التالى، والذى لم يحظ بدراسة دقيقة تبين أن تاريخنا القومى ليس منفصلاً عن تاريخ العلاقات الدولية، وأن قصر الاهتمام على ما يجرى داخل حدودنا يحرم المصريين من منظور متكامل لفهم تاريخهم، ومن ثم لحساب مصالحهم، وإدراك أدوار القوى الفاعلة فى كل عصر على نحو يدفع عنهم خطرها، ويحقق لهم علاقة مأمونة معها .

وتكتمل الحلقات الاستعمارية المؤدية إلى رشيد ١٨٠٧، إذا علمنا بأن بريطانيا نجحت فى العودة إلى جنوب أفريقيا فى عام ١٨٠٦، وبدأت استعمارها من هذا التاريخ حتى عام ١٩٦١.

وهنا تأتى حملة رشيد كنوع من إكمال بريطانيا الطوق على المصالح الفرنسية بأخذ طريق الشمال بين أوروبا والهند – مصر– بعد ما سيطرت على الطريق البحرى الجنوبى عبر رأس الرجاء الصالح .

وهنا يأتى نصر رشيد ليقلب الموازين لصالح فرنسا دون أن تخسر جندياً واحداً، فكأنما المدينة الباسلة قاتلت معركة مزدوجة: معركة فداء الوطن المصرى، ومعركة فك الطوق البحرى البريطانى- عبر البحرين المتوسط والأحمر - عن فرنسا، مدشنة عصر نابليون والتفوق الفرنسى فى القارة لعقد من الزمان. ولعل فى هذا ما قد يفسر جانبًا من ولع الفرنسيين بمصر وإيمانهم بمكانتها، ناهيكم عن قول نابليون بأنها أهم موقع فى العالم .

نصر رشيد إذا هو معركة دولية كبيرة ذات أبعاد عالمية مؤثرة فى التاريخ الإنسانى كله. ولذا لزم أن يكون انعقاد هذه الندوة لدراستها فى هذا الوقت بالتحديد وقبل أن ينصرم زمن الاحتفال بذكراها لمئويتين كاملتين.

ويبقى أن أوجه خالص الشكر لزملائى الأفاضل من الباحثين الأفذاذ لكريم استجابتهم رغم ضيق الوقت، كما أشكر كذلك الأساتذة الكرام أعضاء اللجنة العلمية، وقادة العمل بالمركز بل وكل المراكز العلمية، والزملاء الأفاضل من الباحثين الذين أحسنوا استقبالى منذ تسلمت مسئولية العمل بالمراكز، راجيًا أن نعمل معًا بالإخلاص والتفانى اللذين تقتضيهما رسالة نبيلة تتصل بأصالة الإنسان المصرى وتراثه، ونظرته لنفسه وللعالم الذى يتطلع لتراثها بإعجاب، ويسعى لموقعها بطمع، ويستهدف شعبها، فحينًا يطلبه منقذًا، وحينًا يجعله الضحية .

إن ندوتكم هذه تبعث فينا أمل مصر المنتصرة الفاعلة، لا مصر المستهدفة والضحية، مصر صاحبة الموقع والموقف. والجميل ها هنا أننا بصدد موقف شعب أولا وأخيرًا، وهذه هى روح مصر الخالدة والأبيّة.

وأخيرًا تحية خالصة للدور الخلّاق الذى يضطلع به الصديق المحترم أ.د. محمد صابر عرب رئيس الهيئة وقادة العمل فيها، شاكرًا لهم روح التعاون والتجاوب، داعيًا لهم بكل صحة وتوفيق، ولدار الكتب بكل رفعة وازدهار.

وتحية لأرواح الشهداء والأبطال فى كل أرض مصر، وفى رشيد خاصة.

أ.د. السيد فليفل

رئيس الإدارة المركزية للمراكز العلمية

الحالة السياسية فى مصر

عند مجىء الحملة الإنجليزية ١٨٠٧

(حملة فريزر)

أ.د. عبد الله محمد عزباوى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب جامعة الفيوم

عندما جاءت الحملة الإنجليزية المعروفة بحملة فريزر إلى الإسكندرية فى ١٦ مارس ١٨٠٧ بقيادة القائد الإنجليزى «ماكنزى فريزر» كان محمد على يتولى الحكم بإرادة شعبية رغماً عن الدولة العثمانية، وكان يطارد المماليك فى الصعيد ·ومن ثم فقد كان علي الساحة السياسية فى مصر وقت مجئ الحملة أربع قوى سياسية ، هى الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر، والمماليك ، والزعامة الشعبية ، ومحمد على · وسوف نتتبع تطور أوضاع هذه القوى الأربع وتفاعلها مع بعضها منذ رحيل الحملة الفرنسية عن مصر فى عام ١٨٠١ وعودة الحكم العثمانى إليها وحتى مجىء حملة فريزر فى عام ١٨٠٧.

أولاً- الدولة العثمانية

تطلعت الدولة العثمانية إلى بسط حكمها المطلق على مصر بعد خروج الحملة الفرنسية وعودة مصر إلى حظيرتها فى عام ١٨٠١ بدعوى أنها أعادت فتحها بحد السيف وأرادت أن تجعل منها ولاية أو عدة ولايات تحكمها كما كانت تحكم ولايات السلطنة الأخرى ، ولذا فقد استقر عزمها على محاربة المماليك الذين كانوا قد أصبحوا أصحاب الكلمة العليا فى مصر منذ أوائل القرن الثامن عشر، وخصوصاً قبيل الحملة الفرنسية فترة الحكم الثنائى لمراد وإبراهيم، والقضاء عليهم حتى لا ينازعوها سلطة الحكم فيها فكانت تعليماتها للصدر الأعظم يوسف ضيا باشا - الذى قاد القوات العثمانية البرية إلى مصر لإخراج الفرنسيين منها بالتحالف مع الإنجليز - تقضى بإبادة بقية المماليك حتى لا تقوم لهم قائمة أو إبعادهم عن مصر وإسكانهم فى ولاية أخرى من ولايات الدولة[1]· لكن العثمانيين لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون تحقيق غرضهم هذا، ولذا فقد لجأوا إلي الحيلة والمؤامرة مع المماليك . وكان يوسف ضيا باشا يعمل على إيقاع الفرقة والانقسام بين المماليك بضربهم بعضهم ببعض للقضاء عليهم جميعًا عندما تسنح الفرصة، ولذا فقد عين محمد بك الألفى أميرًا على الصعيد وكان هذا المنصب مطمع كثير من البكوات المماليك الذين حنقوا على الألفى لانفراده بهذه الإمارة [2]

وبالإضافة إلى ذلك اعتزم الصدر الأعظم وحسين باشا القبطان - قائد الأسطول العثمانى الذى شارك مع الانجليز فى إخراج الفرنسيين من مصر - على أن يأخذا رؤساء المماليك غيلة، واتفقا على أن يدعو كل منهما فريقًا من زعمائهم إلى الاجتماع به، الأول فى القاهرة، والثانى فى الإسكندرية بحجة تكريمهم وتقليدهم سلطة الحكم فى البلاد، فإذا اجتمعوا فتك بهم الجنود وقبضوا عليهم وأرسلوهم إلى الآستانة ليقرر الباب العالى مصيرهم[٣] ٠ وفى أوائل أكتوبر ١٨٠١ نفذ حسن باشا قبطان خطته فى أبى قير، كما قام الصدر الأعظم بتنفيذ خطته فى القاهرة وقد قتل بعض المماليك فى أبى قير وتم القبض على البعض الآخر. كذلك تم القبض على الأمراء المماليك فى القاهرة ٠ وعندما علم الانجليز المؤيدون للمماليك بهاتين المؤامرتين أظهروا للعثمانيين غضبهم وطالبوهم بالإفراج عن المماليك المعتقلين وإلا فإنهم سيحاربونهم الأمر الذى أجبر العثمانيين على الإفراج عنهم[٤] ٠ وتوضح هاتان المؤامرتان اللتان قامت بهما ضد الدولة العثمانية والمماليك فى مصر أن محمد على لم يكن أول من فكر فى التخلص من المماليك عن طريق التآمر عليهم فى مذبحة القلعة عام ١٨١١. وإن كان قد نجح فى التخلص منهم بينما فشل العثمانيون فى التخلص منهم نتيجة تدخل الانجليز .

ولما كانت موارد الثروة فى مصر فى تأخر مستمر لجأ الجنود الأتراك إلى النهب والسلب والسطو على البيوت والأفراد والمحال التجارية ٠ ومما زاد الأمر سوءًا انقسام الأتراك فى مصر إلى طوائف متعادية فكانت المعارك بين الجماعات والأفراد تنشب فى معظم الأوقات وفى مختلف الشوارع؛ مما أدى إلى إغلاق الحوانيت ومحال التجارة ، وتملك الفزع الناس ٠ ولم تتخلص مصر من هذه الآفة إلا بتولى محمد على الحكم فى عام ١٨٠٥.

ثانيا - المماليك

كان المماليك يطمعون بعد انتهاء الحملة الفرنسية فى استعادة حكمهم فى مصر بحجة أنهم حكامها الأقدمون الذين دانت لهم البلاد لسنين عديدة ، وخاصة أنهم كانوا يرون أن نصيبهم فى محاربة الفرنسيين يؤهلهم لاستعادة مركزهم الذى حرمتهم منه الحملة الفرنسية عند مجيئها فى عام ١٧٩٨ ٠ وقد فطنوا إلى أن الأتراك يأتمرون بهم

ويريدون التخلص منهم، فاتجهوا بأنظارهم إلى الانجليز - الذين كانوا لم يبرحوا البلاد بعد خروج الحملة- يطلبون منهم الحماية ويستجدون منهم المعونة ٠ وكانت خطة الانجليز حيالهم مغرية لهم على الاسترسال فى أوهامهم وآمالهم ، ذلك أن الجنرال «هتشنسون» ـ قائد القوات الانجليزية فى مصر التى حاربت الفرنسيين ـ سعى قبل أن يزحف إلى القاهرة فى ضم المماليك من أتباع مراد بك إلى صفه وكانوا فى ذلك الوقت موالين للفرنسيين بحكم اتفاق مراد/ كليبر ، فوعدهم أن يعيد لهم سلطتهم القديمة فى مصر إذا انضموا إلى جيوش الحلفاء «الأتراك والانجليز» وقد رأى هؤلاء أن صفقة الانجليز أربح وأن نجم الفرنسيين أخذ فى الأفول ، ولذا فقد انقضوا عليهم ونكثوا باتفاق زعيمهم معهم ، وانضموا إلى صفوف الانجليز الذين عزموا على اتخاذهم صنائع لسيادتهم فى مصر ، فأيدوهم وناصروهم ومالئوهم على استعادة سلطتهم القديمة فى مصر ٠ ومن أجل ذلك فقد توثقت عرى المودة بين المماليك والانجليز ، واعتقد المماليك فى الاستظلال بحمايتهم ٠ وعندما انتهت الحرب بجلاء الفرنسيين أبدى الجنرال هتشنسون عطفاً كبيراً عليهم (٥)

ولكن المماليك فشلوا فى استعادة سلطتهم وذلك للأسباب التالية :-

١- أن الحملة الفرنسية قد حطمت الهيبة التى كانوا يتمتعون بها لدى المصريين ، كما أن الحرب أفنت عددًا كبيرًا منهم ، ولم يبق منهم سوى عدد يتراوح بين ٣٥٠٠ إلى أربعة آلاف مملوك بمن فيهم بضع مئات من الأرقاء ـ الذين اشتروهم من القوافل القادمة من سنار ـ كانوا قد ضموهم إلى صفوفهم، بالإضافة إلى ٣٠٠ من الجنود الفرنسيين الذين لم يرحلوا مع الحملة الفرنسية وفضلوا البقاء فى مصر، وانضموا إلى صفوف المماليك ، ولم يكن باستطاعة المماليك شراء الرقيق من الخارج لضمهم إلى صفوفهم بسبب معارضة الباب العالى الذى كان يسيطر على أسواق الرقيق؛ مما اضطرهم إلى استخدام بعض البدو . وبالرغم من ذلك فقد ظل المماليك بالنسبة للعثمانيين قوة عسكرية لا يستهان بها .

٢- لم يستطع المماليك فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ مصر أن يتناسوا ما بينهم من خصومات، فقد استمر التنافس القديم الذى كان بين حزبى إبراهيم بك ومراد بك

قبل الحملة الفرنسية ، فكان لكل منهما أنصاره وشيعته من الأتباع والبكوات. ولما مات مراد بك استمر الانقسام بين أنصار إبراهيم وأتباع مراد، وقد استخدمت الدولة العثمانية هذا التنافس لتضرب المماليك بعضهم ببعض فكانت تعد كل فريق بأن تكون له السلطة والسيادة فى مصر .

٣- كره المصريين لهم بسبب سطوهم على القرى ورغبتهم فى التمتع بخيرات البلاد دون غيرهم من العناصر[٦] .

وعندما جلا الانجليز عن البلاد فى ١٦ مارس ١٨٠٣- وفقا لمعاهدة إميان الموقعة فى ٢٧ مارس ١٨٠٢ بين فرنسا وانجلترا وهولندا وإسبانيا - اصطحب الانجليز معهم محمد بك الألفى[٧]، الذى اصطحب معه خمسة عشر من مماليكه ، وأقام مكانه فى مصر بشتك بك أحد مماليكه الذى سمى بالألفى الصغير، وأمَّره على رجاله وأمرائه وأمرهم بطاعته وأوصاه بهم[٨]. وكان الجنرال «ستيوارت» قائد الجيش الانجليزى فى مصر قد أيقن أن انجلترا رغم جلائها عن مصر تستطيع أن تدخر المماليك فى المستقبل لتحقيق أطماعها فيها، وأن تتخذهم أداة لبسط نفوذها فى البلاد، ولذا فقد أغرى الألفى أن يسافر إلى انجلترا ليطلب منها مساعدة المماليك فى حكم البلاد ومساومتها فى هذا الشان، ولم يكن الألفى أقل منه رغبة فى الرحلة إلى انجلترا، فقد كانت هذه الرحلة تختلج فى صدره وذهب بعض المؤرخين إلى أنه هو الذى عرض على الجنرال ستيوارت أن يأذن له باصطحابه إلى لندن[٩]. وهكذا كان الألفى شأنه فى ذلك شأن المعلم يعقوب القبطى المصرى الذى ارتحل مع الحملة الفرنسية ومات فى عرض البحر قبل أن يصل إلى فرنسا، وكان لديه مشروع لاستقلال مصر عن الدولة العثمانية بمساعدة كل من فرنسا وانجلترا، مع فارق واحد هو أن الألفى كان يسعى لاستقلال مصر لتكون تحت حكم المماليك بمساندة انجلترا فقط.

وبعد جلاء الانجليز عن مصر أصبح الأتراك أصحاب القول فيها كما أصبحت الإسكندرية خطرًا على المماليك بعد أن كانت ملاذًا لهم مدة الوجود البريطانى فى مصر؛ ولذا فقد انسحبوا منها بقيادة «عثمان بك البرديسى» إلى الصعيد حيث كان الجيش العثمانى يحتل بعض المدن الكبرى، وأهمها المنيا وأسيوط وجرجا ٠ وقد هاجم

البرديسى المنيا واحتلها فى ١٧ إبريل ١٨٠٣ بعد قتال عنيف · وعندما تم للمماليك احتلال المنيا أضرموا فيها النيران وقتلوا من فيها من الأهالى والجنود الأتراك[١٠]. وقد أدى احتلال المماليك للمنيا إلى سيطرتهم على الملاحة فى النيل ومنعوا بذلك وصول الغلال من الصعيد إلى القاهرة والوجه البحرى ، وصارت الحاميات العثمانية فى أسيوط وجرجا فى خطر ، وأسرف الفريقان المتحاربان فى ظلم الأهالى وسلب أموالهم ، فكلما مروا بالقرى طلبوا من أهلها دفع الإتاوات والغرامات ووضعوا أيديهم عنوة على ممتلكات الأهالى من مال وحاصلات؛ ومن ثم فقد ضج الناس من مظالم الفريقين وتمنوا الخلاص منهما [١١].

ثالثا - المصريون وزعامتهم الشعبية

كان المصريون قد بدأوا يظهرون كقوة سياسية خلال السنوات الثلاث التى قضتها الحملة الفرنسية فى مصر· وكانت هذه السنوات الثلاث بمثابة المران على النضال والكفاح، فقد ثار المصريون فى وجه الحكم الفرنسى أكثر من مرة فاعتادو مقاومة الاضطهاد والوقوف فى وجه القوة المسلحة؛ ومن ثم فعندما جلت الحملة عن مصر وعاد الحكم العثمانى إلى البلاد استطاع هذا الشعب بما يملك من خبرات سابقة فى مواجهة الفرنسيين أن يتصدى لظلم كل من المماليك والأتراك وينجح فى النهاية فى الإطاحة بالوالى العثمانى الظالم خورشيد باشا، ويعين بواسطة زعمائه من العلماء محمد على حاكمًا على مصر فى عام ١٨٠٥

أما الزعامة الشعبية فقد تمثلت فى جماعة العلماء التى كانت تتكون من مدرسى الأزهر وأرباب الطرق الصوفية والقضاة والمفتين ونقيب الأشراف ممن كان يطلق عليهم تجاوزًا اسم رجال الدين · وكان هذا راجعًا إلى أنهم حملة القرآن الكريم وحفظة الشرع الشريف ، واشتهارهم بالتقوى والصلاح، وهذه أمور لها قيمتها فى مجتمع يحترم رجال الدين ويبجل رجاله· وقد أتاح هذا الوضع الاجتماعى للعلماء أن يلعبوا دورًا سياسيًا فى المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ·

وقد مر دور العلماء السياسى فى مصر خلال هذه الفترة بأربع مراحل، هى :

المرحلة الأولى : خلال القرن الثامن عشر وإلي قبيل نهاية القرن ، وكان العلماء يكتفون فيها بالدفاع عن حقوق الشعب أمام المماليك، والوساطة بين الزعامات المتقاتلة منهم.

المرحلة الثـانية : فى نهاية القرن الثامن عشر وقبيل مجئ الحملة الفرنسية حيث بلغ ظلم المماليك حداً لا يطاق فتزعم العلماء الجماهير وفرضوا شروطهم في عام ١٧٩٥.

المرحلة الثالثـة : خلال الحملة الفرنسية حين واجه العلماء مسئولية الجهاد فى سبيل الله وتحرير البلاد.

المرحلة الرابعة : من بعد خروج الحملة الفرنسية وتولية محمد على فى عام ١٨٠٥، وفيها وجد العلماء أنهم أصحاب الحق فى تولية من يتولى حكم البلاد، وقد اختاروا فى النهاية محمد على[١٢]

ومن أبرز القيادات الشعبية التى لعبت دوراً بارزاً فى مقاومة ظلم الولاة العثمانيين وتولية محمد على، السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، فقد كان أكثر زعماء الشعب نفوذاً لدى الشعب . ولا يعرف الكثير عن مولده ونشأته ، فلم يترجم له الجبرتى لأنه لم يدرك وفاته ، وإن أشار إليه فى مناسبات عديدة ومن هذه الإشارات أن السيد عمر مكرم أسيوطى المولد والنشأة، ولد بأسيوط ونشأ فيها ولذلك يسميه الجبرتى فى بعض المواضع السيد عمر الأسيوطى ، وهو من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب «كرم الله وجهه» . أصبح نقيباً للأشراف قبل مجىء الحملة الفرنسية، وعندما جاءت هذه الحملة دعا المصريين إلى التطوع والقتال ، ولما وقعت الهزيمة بالمماليك فى موقعة إمبابة ، ترك البلاد بالرغم من أن الفرنسيين كانوا قد اختاروه لعضوية الديوان الأول ، وهاجر إلى بلاد الشام ، وظل فى منفاه الاختيارى فى مدينة يافا إلى أن استولى عليها بونابرت الذي كان يعرف منزلته ومكانته فى مصر ، فأمر بإرساله إلى مصر معززاً مكرماً ، فعاد إليها، لكنه اعتزل الفرنسيين واعتكف فى بيته، ولم يشأ أن يتصل بهم أو يتقرب إليهم، واستمر فى عزلته إلى أن أبرمت معاهدة العريش بين كليبر والأتراك التى نقضها الأخيرون بتحريض من الانجليز؛ ومن ثم فقد تجددت الحرب بين الفرنسيين والعثمانيين وثارت القاهرة ثورتها الثانية (٢٠ مارس - ٢٠ إبريل ١٨٠٠) فكان من زعمائها ، ولما تمكن كليبر من إخماد هذه الثورة هاجر من مصر مرة ثانية، ثم عاد إليها بعد جلاء الفرنسيين فزادت منزلته القديمة بين المصريين ، وعادت إليه نقابة الأشراف

التى كانت قد نزعت منه أثناء هجرته الأولى وكانت له اليد الطولى فى الثورة التى قامت ضد حكم المماليك فى سنة ١٨٠٤ وضد الوالى العثمانى خورشيد باشا فى سنة ١٨٠٥ والتى تولى على أثرها محمد على الحكم فى مايو من نفس العام [١٣]

رابعا - محمد على

نشأ محمد على بمدينة قولة من ثغور مقدونيا [١٤] . وليس من المعروف على وجه الدقة تاريخ ميلاده ، ومن المرجح أن يكون بين مايو ١٧٦٨ وإبريل ١٧٧١ . وفى سنوات لاحقة وبعد أن أصبح حاكمًا على مصر اختار محمد على عام ١٧٦٩ ليكون عام ميلاده وهو العام الذى ولد فيه «نابليون بونابرت» «وويلنجتون» الذى هزم نابليون فى ووترلو عام ١٨١٥ وأصبح رئيسًا لوزراء بريطانيا فى الفترة ما بين ١٨٢٨ - ١٨٣٠ . وترجح عفاف لطفى السيد أنه قد ولد فى عام ١٧٧١[١٥]

والده هو إبراهيم أغا الذى صاهر أسرة شوربجى حاكم قولة ، وعُين بسبب ذلك قائدًا لجماعة من الجند غير النظاميين[١٦] مهمتها خفارة الطرق . وحسب رواية محمد على فإن والده مات صغيرًا وعمره لا يتجاوز الرابعة عشرة فكفله عمه طوسون الذى توفي بعد مدة يسيرة، فكفله حاكم المدينة الشوربجى صديق والده[١٧] ٠ وقد اتضح بعد ذلك أن والده مات عندما كان فى العشرين من عمره أى أنه كان رجلاً كامل النضج ومتزوجًا، فقد دوّن على قبر والده أن تاريخ وفاته هو ١٢٥٠هـ / ١٧٩٠-١٧٩١ م ، وربما ادعى محمد على قصة يتمه وهو صغير ليعلّى من قدر نفسه كرجل عصامى ، ارتفع إلى المجد فى مواجهة ظروف صعبة لا تقهر بما فى ذلك الحرمان المبكر من والده[١٨]

وكان إبراهيم أغا يشتغل بتجارة الدخان وتأجير السفن كنشاط جانبى ، وعندما بلغ محمد على سن العاشرة أشركه والده معه فى تجارة الدخان الذى كان يزرع فى المناطق الداخلية فى منطقة قولة ، وكان على درجة عالية من الجودة ، وكان الجانب الأكبر من تجارة قولة يدور حول الدخان. وقد خلف محمد على والده بعد مدة فى رئاسة الجند النظاميين وتجارة الدخان أيضًا[١٩] .

وفى سن السابعة عشرة وبعد أن برز محمد على فى عدد من المناوشات ضد الفلاحين العصاة الذين رفضوا دفع ما عليهم من ضرائب استدعى إلى الآستانة،

وأسندت إليه قيادة سفينة حربية لمطاردة القراصنة فى بحر إيجة. وربما تكون هذه القصة قد ابتدعت أيضا لإظهار أن الرجل قد اكتسب خبرة بحرية فى مطلع حياته ، على أن الشئ المؤكد هو أن محمد على قد اقتفى أثر والده فى أن يكون جنديًا وأنه شارك فى عدد من المناوشات وقد اجتذب دهاؤه ومهارته فيها انتباه رؤسائه الذين أوصوا بترقيته إلى مركز قيادى[٢٠]

وعندما بلغ محمد على سن السابعة عشرة أيضا زوّجه حاكم المدينة من إحدى قريباته كانت على جانب نسبى من الثراء اسمها «أمينة»، كانت قد تزوجت من قبل من رجل آخر إلا أن هذا الزواج لم يكتمل، فقد اقتصر على عقد الزواج فقط إذ توفى الزوج قبل أن يبنى بزوجته وأصبحت الأرملة الشابة وارثة لميراث ضئيل عندما تزوجت محمد على [٢١]

وقد تفرغ محمد على لتجارة الدخان وربح منها ، على أنه ما لبث أن عاد إلى الحياة العسكرية عندما أغار بونابرت على مصر فى عام ١٧٩٨ وشرع الباب العالى فأمر حاكم قولة تعبئة جيوشه لمحاربة الفرنسيين فيها وتقديم مالديه من الجنود للمشاركة فى محاربة الفرنسيين فألف الأخير كتيبة من ثلاثمائة جندى ، انتظم محمد على فى سلكها وكان على أغا ابن الشوربجى حاكم قولة رئيسًا لها ومحمد على معاونًا له . وقد جاءت هذه الكتيبة إلى مصر على ظهر الأسطول التركى الذى رسا على ساحل أبى قير بقيادة حسن قبطان باشا فى ٨ مارس ١٨٠١[٢٢]

وفى مصر اشترك محمد على فى المعارك الأخيرة التى دارت بين الانجليز والأتراك والفرنسيين من جهه أخرى، وشارك محمد على - على الأخص - فى هجوم الجيش العثمانى على الرحمانية التى كان يدافع عنها وكلفه حسين قبطان على مهاجمة القلعة التى كان الجنرال «لاجرانج» Lagrange يتحصن بها ، وقد ساعده الحظ فى مهمته بانسحاب «لاجرانج» والفرنسيين منها، فاحتلها محمد على بسهولة[٢٣].

وقد شهد محمد على انتهاء عهد الحملة الفرنسية ، وبقى فى مصر بعد خروجها، وارتقى فى أثناء وجوده بها إلى رتبة السرشمة - أى رئيس الألف - والتى تقابل رتبة المقدم الآن[٢٤] . وفى أول ذكر للجبرتى له أشار إليه على أنه قائد الجنود العثمانيين «أمير العساكر العثمانية محمد على سرشمة»[٢٥] بينما تحدث عنه نقولا ترك على أنه «البنباشى الأرناؤط» وهى مساوية لرتبة السرشمة .

وقد اكتسب محمد على بسرعة كبيرة المزيد من الشهرة كقائد قدير وكفء وترقى بسرعة فى مختلف الرتب حتى أصبح الرجل الثانى فى القوة الألبانية بكاملها وليس فى القوات القادمة من قولة فقط . وكانت القوة الألبانية تحت قيادة ضابط يدعى طاهر(٢٦).

وأخذ محمد على خلال تواجده فى مصر يرقب تطور الصراع بين العثمانيين والمماليك اللذان كانا يتنازعان بعض خروج الفرنسيين، ووضع لنفسه خطة قوامها أن يتحبب إلى المصريين ويستميل إليه زعمائهم ويستعين بهم للوصول إلى قمة السلطة(٢٧)

وكان «خسرو باشا» أول والى عثمانى فى مصر يتقلد الحكم بعد خروج الفرنسيين(٢٨). وقد بدأ حركاته الحربية بتجريد حملة على المماليك فى الصعيد للقضاء عليهم ، وكان هؤلاء قد انتشروا فى الفيوم وبنى سويف والمنيا(٢٩) ويذكر الجبرتى أن العامة أطلقوا على هذه الحملة اسم «حملة الحمير» تهكمًا عليها لأن خسرو أمر بجمع حمير الحمّارة والترّاسين والسقّائين وفرض على أهل القاهرة ألف حمار وكذلك ضواحيها فى بولاق ومصر القديمة، وأخذ الجنود العثمانيون يخطفون حمير الناس ويهجمون على البيوت ويأخذون ما يجدونه بها من حمير(٣٠) واشتبكت هذه الحملة مع المماليك فى قرية تابعة لمركز نجع حماد الآن - بمديرية قنا - وأن الأخيرين هزموهم واستولوا على مدافعهم(٣١) .

وقد ذكر «سبستيانى» القنصل الفرنسى فى مصر الذى عاد إليها فى عام ١٨٠٢ فى تقرير أن خسرو الوالى العثمانى قد تهيأ لقتال المماليك خمس مرات وعندما حاول سبستيانى أن يتدخل لصالح المماليك أبلغه خسرو أن لديه أوامر قاطعة من الباب العالى بشن حرب إبادة ضد المماليك وأن يرفض بلا رحمة أى محاولة للتفاهم معهم، ثم أطلع سبستيانى على أمرين سلطانيين، فى أحدهما أمر من السلطان له بأن يقضى على المماليك الذين يوجدون على أرض مصر، والثانى أمر له بإهانة زعماء العلماء وتجريدهم من أموالهم وأن يخص بضرباته «الشيخ البكرى» «والشيخ السادات». ويبدو أن العلماء قد علموا بهذا الأمر ومن ثم كانت عداوتهم للعثمانيين وتقاربهم بعد ذلك مع محمد على(٣٢)

كان خسرو متعطشًا للدماء، والأسوأ من هذا أنه كان إدارياً سيئاً، فقد فرض ضرائب متعسفة وغير مقبولة على شعب موشك على الهلاك، ومن بين هذه الضرائب العديدة التى فرضها ضريبة عقارية مساوية لإيجار ثلاث سنوات على المساكن الخاصة، وتأخر فى نفس الوقت فى دفع مرتبات الجنود وخاصة الألبان منهم لمدة خمسة أشهر[٣٣] ، ورأى محمد على أن الفرصة أصبحت سانحة للتخلص من خسرو، فأوعز هو وطاهر باشا إلى الجنود بالمطالبة برواتبهم المتأخرة، الذين لم يتأخروا فى التمرد، فقاموا بمظاهرة للمطالبة بها، وقد رد الوالى عليهم بتوجيه مدافع القلعة فى اتجاههم، غير أن طاهر باشا قاد الجنود وهزم خسرو الذى فر إلى دمياط[٣٤] .

أصبحت القاهرة فى قبضة طاهر باشا بعد مغادرة خسرو إلى دمياط ، وصار منصب الوالى فى مصر شاغراً ، فطلب طاهر باشا إلى المشايخ وكبار العلماء وكبار الضبط «الواجقلية» أن يختاروا من يشغل هذا المنصب ، فاجتمع المشايخ فى ٦ مايو ١٨٠٣ ببيت القاضى وذهبوا فى صحبته إلى بيت طاهر باشا وأعلنوه باختياره قائماً إلى أن تحضر له الولاية أو يعين وال آخر، وطلبوا منه رفع المظالم عن الناس التى كانوا يشكون منها[٣٥] . ويتضح من هذا أن تعيين محمد على والياً على مصر فى عام ١٨٠٥ لم تكن السابقة الأولى فى هذا المجال، بل سبقها تعيين طاهر باشا بواسطة العلماء.

وفى هذا المجلس السابق الذى تم فيه تعيين طاهر باشا قائماً لحين وصول فرمان توليته أو تعيين وال آخر من قبل الباب العالى ، عرض المشايخ رسالة من البكوات المماليك فى الصعيد كانوا قد أرسلوها قبل وقوع الفتنة العسكرية التى انتهت بخلع خسرو باشا ، يعرضون فيها الصلح والكف عن القتال ويلقون تبعة استمرار الحرب على كل من الصدر الأعظم وخسرو باشا ، ويطلبون من المشايخ أن يتوسطوا فى الصلح. وقد انتهز طاهر باشا هذه الفرصة ليجتذب اليه المماليك ، وكتب إليهم خطاباً يدعوهم فيه إلى الحضور والاقتراب من القاهرة [٣٦]، أى يظلوا خارج القاهرة ولايدخلوها. وقد اكسب تدخل العلماء ووساطتهم بين البكوات المماليك وطاهر باشا نفوذاً لدى الفريقين كما أدى مسعاهم فى رفع المظالم عن الناس إلى إعلاء مكانتهم وزيادة التفاف الناس حولهم[٣٧].

وعلى أثر مراسلة طاهر باشا للمماليك، أتى هؤلاء من الصعيد إلى الجيزة بقيادة إبراهيم بك ، وسمح لهم بدخول القاهرة لقضاء حاجاتهم والذهاب إلى بيوتهم ثم العودة إلى معسكرهم فى الجيزة[٣٨]

وكان طاهر باشا مولعًا بالقتل وسفك الدماء ، وأطلق لجنوده الألبانيين عنان السلب والنهب وفرض الغرامات الفادحة على التجار . وقام الجنود الإنكشارية فى المدينة يطالبون برواتبهم المتأخرة ، فرفض طاهر طلبهم وأظهر انحيازه إلى الألبان فحنق عليه الإنكشارية ، وقام اثنان منهم بقتله فى ٢٦ مايو ١٨٠٣ ، وبذلك تكون مدة حكمه ٢٣ يوماً فقط[٣٩]

ويذهب الجبرتى إلى أن لمحمد على دور فى إثارة الإنكشارية على قائده طاهر باشا وقتله حتى يخلو له الأمر ، فقد أصبح قائد القوة الألبانية فى مصر بعد مقتل طاهر باشا[٤٠] ، وكان عددهم نحو أربعة آلاف مقاتل[٤١]

رأى محمد على بعد مقتل طاهر باشا أن من مصلحته الاتفاق مع المماليك ليتخلص من القوة التركية أولاً على أن يعود ليتخلص من المماليك بعد ذلك[٤٢] . وكان الإنكشارية قد قاموا بتعيين وال منهم يخلف طاهر باشا في الحكم ، وهو أحمد باشا والى المدينة الذى كان موجوداً وقتئذ بالقاهرة[٤٣]

أراد أحمد باشا أن يستميل إليه العلماء ويستخدم نفوذهم ليثبت مركزه وإقناع محمد على بقبول ولايته فأحضرهم إليه وطلب منهم أن يذهبوا إلى محمد على ويطلبوا منه الإذعان والطاعة ، فذهبوا إليه وخاطبوه في ذلك، ولكنه رفض وساطتهم بحجة أن أحمد باشا ليس له علاقة بمصر، ويجب عليه أن يخرج منها ويأخذ معه الإنكشارية، وانصرف العلماء على أثر ذلك وذهبوا إلى احمد باشا وأبلغوه رد محمد على ، وعندئذ طلب إليهم أن يأمروا الرعية بالقيام على الألبانيين وقتلهم فلم يجيبوه إلى طلبه، وقاموا من عنده ليتشاوروا فى الأمر ، فطلب اليهم أن يبقوا عنده ويرسلوا للناس بما أمرهم به . وكان يهدف من وراء ذلك أن يكرههم فيما يملى عليهم فلا يعصوا له أمرًا، واحتال العلماء عليه للخروج من عنده ، وقالوا له «أن من عاداتنا أن يكون جلوسنا فى المهمات بالجامع الازهر نجتمع به ونرسل إلى الرعية فإنهم لا يخالفوننا» ، ولم يزالوا حتى تخلصوا منه وخرجوا من عنده[٤٤]

كان محمد على ملتزماً الحيدة ظاهريًا، وإن لم يكن بعيدًا عن حركة الألبانيين التى انتهت بعزل خسرو، وظل فى القاهرة متظاهرًا بالحيدة أثناء ولاية طاهر باشا، يرقب الحوادث عن كثب، وينتظر الفرصة السانحة ليحقق برنامجه ، فلما عين الإنكشارية أحمد باشا صمم على الخروج من حيدته، وعزم على التحالف مع المماليك، واجتمع بإبراهيم بك فى الجيزة، وأوهمه أنه يؤيده وأنه أولى الناس بولاية مصر، ودخل هو وإبراهيم وعثمان بك البرديسى وباقى الزعماء متحالفين القاهرة، وطردوا أحمد باشا الذى لم تستمر ولايته أكثر من يوم وليلة وأعلنوا فى المدينة تحالف المماليك والألبانيين، واستولوا على زمام الحكم ، ومنذ ذلك الوقت بدأت تظهر سلطة محمد على فى مصر، ونادى المنادى فى القاهرة بالأمان حسب ما رسم إبراهيم بك حاكم الولاية وأفندينا محمد على . وكان هذا النداء إعلانًا عن اقتسام السلطة بين إبراهيم ومحمد على، ذلك أن عبارة «حسب ما رسم فلان» هى إعلان باسم من أصبح قابضًا على السلطة فى مصر فى ذلك الوقت[٤٥] . وكان تحالف محمد على مع المماليك بداية لسلسلة التحالفات المؤقتة والصراعات التى أدت فى النهاية إلى الارتفاع به إلى مرتبة التنافس على الولاية[٤٦].

اتجهت بعد ذلك حملة بقيادة البرديسى ومحمد على للقبض على خسرو باشا الذى كان قد فر إلى دمياط، واستطاعت هذه الحملة القبض عليه بعد مقاومة منه، وإعادته إلى القاهرة وسجنه فى القلعة[٤٧] وقد أدت الحملة الأخيرة إلى خراب المدينة[٤٨]

عزمت الحكومة العثمانية على استرداد سلطتها فى مصر فعزلت كلاً من خسرو باشا وطاهر باشا[٤٩]، وعيّنت على باشا الجزائرلى واليًا على مصر، وأوفدته إليها ليعيد الأمور إلى نصابها، وكبح جماح المماليك. ووصل الوالى الجديد إلى الإسكندرية فى أوائل يوليو ١٨٠٣ ومعه قوة من ألف جندى، وكانت هذه القوة أضعف من أن توطد سلطته فى البلاد خاصة بعد انتصار المماليك وتحالفهم مع محمد على، وأخذ يكاتب البكوات المماليك ويدعوهم إلى الولاء لحكومة الآستانة ، ويلومهم على ما فعلوه من دخول القاهرة وطرد الأتراك والإنكشارية، فأجابه إبراهيم بك بأن المماليك لم يدخلوا المدينة إلا بناء على دعوة المشايخ والعلماء لوضع حد للفوضى التى عصفت بها وأنهم يرفضون الخروج منها ويصرّون على البقاء فيها.[٥٠]

فطن المماليك إلى أن الوالى الجديد إذا ترك وشأنه وسار بجنوده إلى القاهرة سيعيد الحكم العثمانى ومن ثم قرروا منعه من دخول العاصمة وأبلغه إبراهيم بك أنه طبقاً لتقليد مملوكى مرعى من قديم فإنه سيسمح له بدخول القاهرة وبصحبته مائتا رجل فقط. وكان من الطبيعى أن يتردد الجزائرلى باشا فى التخلى عن الأمن الذى يجده فى الإسكندرية؛ ولذا لم يذهب إلى القاهرة التى أصبح إبراهيم بك سيداً عليها(٥١)

وعندما حاول على باشا الجزائرلى دخول القاهرة تصدى له المماليك عند شلقان، وأركبوه بصحبة جماعة منهم لحراسته والذهاب به إلى حدود بلاد الشام، ولم يكتفوا بذلك بل أغروا به حراسه فقتلوه فى الطريق فى يناير ١٨٠٤(٥٢)

وكان السلطان العثمانى قد أصدر عفوًا عن المماليك عند تولية على باشا الجزائرلى بشرط الا يتدخلوا فى شئون الحكم(٥٣). وبتعبير نقولا ترك «ألا يتعاطوا الأحكام»(٥٤)

وفى ذلك الوقت عاد محمد بك الألفى إلى مصر، حيث نزل فى أبى قير فى١٢ فبراير ١٨٠٤،(٥٥) وعندما علم البرديسى وإبراهيم بك بوصوله، بعثا برجالهما إليه للقبض عليه وقتله خوفاً منه، ذلك أنه قبل توجهه إلى انجلترا كان قد أخذ تعهداً مختومًا من جميع الأمراء المماليك أنه إذا عاد سالماً من هناك يكون هو المتقدم على باقى الأمراء المماليك الموجودين فى مصر. فخاف إبراهيم بك والبرديسى أن ينتزع الألفى منهما السيادة، ولذلك قررا قتله والتخلص منه. وكان محمد على على دراية بهذه المؤامرة ضد الألفى(٥٦) ، ولكن الألفى تمكن من الفرار إلى الصعيد وهناك أخذ يسعى فى تكوين حزب يناصره، وهكذا انقسم المماليك وتفرقت أهواؤهم، فكان ذلك من الأسباب التى عجّلت بالقضاء عليهم .(٥٧)

أدى انقسام المماليك إلى طمع محمد على فى القضاء عليهم حتى يخلو له الجو ويتولى حكم مصر وفى ذلك يقول نقولا ترك «ومنذ ذلك الوقت تنورت شمسه وحدثته

نفسه أن يغتال الغُز الموجودين بمصر، ويدمس عليهم سرًا، ويطفى خبرهم ويقطع أثرهم. وعقد هذه المشورة ما بينه وبين رؤساء العساكر من بعد ما نظر ميل أهل المدينة وبغضهم المفرط لدولة المماليك كما تقدم شرحه سابقًا، والذى أغراه على ذلك ومهد له هذه المسالك خيانة الغُز لمحمد بك الألفى الكبير وقصد قتلهم له»[٥٨]

وكانت القاهرة فى ذلك الوقت فى عسر شديد وتهددها المجاعة ، بسبب انخفاض مياه النيل فى الوقت الذى احتكر فيه المماليك سوق الغلال وقاموا بتخزينها، وفى ذلك يقول الجبرتى «وفى منتصف هذا الشهر - جمادى الأولى ١٢١٨هـ/ سبتمبر ١٨٠٣ - فى أيام النسىء نقص النيل نقصًا فاحشًا وانحدر من على الارض ، فانزعج الناس ، وازدحموا على مشترى الغلال، وزاد سعرها ، ثم استمر يزيد قيراطا وينقص قيراطين إلى أيام الصليب، وانكبت الخلائق على شراء الغلال ، ومنع الغنى من شراء ما زاد على الأردب ونصف أردب ، والفقير لا يأخذ إلا ويبة فأقل، ويمنعون الكيل بعد ساعتين ، فيذهب الناس إلى ساحل بولاق ومصر القديمة ، ويرجعون من غير شىء ٠٠٠٠ وصار الأمراء يأخذون الغلال القادمة بمراكبها قهرًا عن أصحابها ، ويخنّوها لأنفسهم ، حتى قلت الغلة وعزّ وجودها فى العرصات والسواحل ، وقل الخبز من الأسواق والطوابين، وداخل الناس وهم عظيم ، وخصوصا مع خراب البلاد بتوالى الفِرد والمغارم ، وعزّ وجود الشعير والتبن، وبيعت الدواب والبهائم بالسعر الرخيص بسبب قلة العلف[٥٩]

وعندما ضج الناس عقد المماليك ديوانًا اتفقوا فيه على إسناد أمر الغلال إلى محمد على وجعلوه أمير البحرين، وأصبح الأخير بذلك مسئولا عن ساحلى بولاق ومصر القديمة ، والأماكن الأخرى التى تباع فيها الغلال، وبناء على ذلك نزل محمد على إلى ساحل بولاق وفتح بعض المخازن كانت الغلال موجودة بها، وباعها للخبازين والفقراء والمساكين مما أُدى إلى رضاء الناس عنه والدعوة له[٦٠] وكانت هذه الخطوة فى صالح محمد على، فقد نظر إليه أهالى القاهرة على انه بطلهم.

لم تلبث أن انفجرت فى ٢٧ فبراير حركة تمرد عسكرى مرة أخرى بين صفوف الجنود الذين طالبوا بمرتباتهم المتأخرة[٦١]، وقد قام محمد على بإقناع البرديسى بأن يدفع للجنود مرتباتهم المتأخرة، ومما لا شك فيه أن محمد على كان يدرك أنه لكى

يفعل البرديسى ذلك فلابد من فرض ضريبة باهظة على الأهالى الذين ربما يقومون مثل هذه الخطوة، ذلك أنه والبرديسى كانا يسيطران على القاهرة ، وأنه إذا ما تخلص من البرديسى فسوف تكون له السيادة على المدينة ، وسيكون فرض مثل هذه الضريبة قد جاء فى أسوأ وقت خاصة وأن النيل كان منخفضًا فى هذا العام ، وجنى المماليك القدر الأكبر من كراهية القاهريين(٦٢)وقد فرض البرديسى ضريبة غير عادية على الأهالى الذين ثاروا هذه المرة، وانطلقوا إلى الشوارع مرددين الهتافات ضد البرديسى قائلين «أيش تاخذ من تفليسى يا برديسى» وسبوا المماليك والجنود علناً(٦٣)وعندئذ انتهز محمد على الفرصة وأرسل رجاله فى مختلف أنحاء المدينة ليمنعوا الجنود من القيام بأعمال السلب والنهب مما زاد من مكانته(٦٤)

وقابل البرديسى ثورة الجماهير هذه بالغطرسة والكبرياء، ونقم على المصريين قيامهم فى وجهه وخروجهم على حكمه ، وتوعدهم بالشر والنكال(٦٥) وانتهز محمد على أيضًا فرصة غضب المصريين على المماليك وثورته عليهم ، وتوزع جنود المماليك فى الأقاليم ليتخلص منهم ، ولذا فقد أمر جنوده فى ١١ مارس ١٨٠٤ بمهاجمة المماليك الموجودين بالقاهرة ، الذين حاصروا بيت إبراهيم بك ببركة الفيل وبيت عثمان البرديسى بالناصرية وبيوت باقى المماليك واستمر الحصار لمدة يومين(٦٦)

وأسقط فى أيدى المماليك ورأوا أنفسهم إزاء قوتين ، ثورة الأهالى من جهة، وجنود محمد على من جهة أخرى، فلجأوا إلى الفرار للصعيد كى يستعدوا لاستئناف الحرب والقتال ، فى الوقت الذى استولى فيه محمد على على القلعة ، ثم أبطل فى ١٣ مارس ١٨٠٤ الضريبة التى كانت السبب فى اشتعال ثورة الجماهير ضد البرديسى والمماليك (٦٧) وأدى ذلك إلى سيطرة محمد على على مصر، وفى ذلك يقول نقولا ترك «وأما ماكان من أمر السارى عسكر محمد على صاحب المقام العلى والكوكب الجلى فإنه تمكن من مصر وساعده النصر ونال مرامه وقهر أخصامه وكان رب مكيدة وأمراه سديدة فهذا ما تم بتقدير العزيز العليم»(٦٨)

بعد التخلص من المماليك أصبحت الفرصة سانحة أمام محمد على كى يحقق آماله ويتولى الحكم فى مصر ، إلا أنه لم يكن متسرعاً بل كان ذا صبر طويل ، بعيد

النظر، فرأى من الأفضل ألا يصل إلى السلطة بقوة الجند، ولذا قرر الانتظار حتى يصل إلى تلك الغاية بإرادة الشعب · ومن ثم فقد دعا خسرو باشا - الذى كان مسجونًا فى القلعة - كى يتولى منصب الولاية ، على أن يتولى هو إدارة الشئون باسمه ، ونادى المنادى بالأمان «حسبما رسم محمد باشا خسرو ومحمد على «وأدى ذلك إلى زيادة تعلق الشعب به لما رأى فيه من التعفف وعدم الرغبة فى تولى الحكم» وكسب محمد على من وراء هذه الخطوة عطف الباب العالى، فقد برهن له محمد على بذلك أنه لم تكن له يد في الفتن التى أدت إلى عزل خسرو باشا وقتل على باشا الجزائرلى ، إلا أن أقارب طاهر باشا وأنصاره لم ينسوا عداءه القديم لسيدهم فثاروا عليه وعزلوه وأرسلوه إلى الآستانة ، ولم يعارضهم محمد على فيما اتخذوه ، وسعى فى نفس االوقت إلى تعيين خورشيد باشا حاكم الإسكندرية واليًا على مصر . ولذا فقد اجتمع العلماء ورؤساء الجند واتفقوا على تعيين خورشيد واليًا، وتعيين محمد على قائماً إلى أن يصل الوالى الجديد إلى القاهرة ، وأوفدوا رسولا الى الإسكندرية يدعو خورشيد للحضور إلى العاصمة ليتولى منصب الولاية[٦٩] . وقد اشتهر خورشيد أثناء حكمه للإسكندرية بالعقل والعدل[٧٠]

وحتى لايبدو محمد على وكأنه مغتصب للسلطة فقد عهد إلى كل من السيد أحمد المحروقى والمعلم جرجس وعثمان أغا الخازندار بإدارة أمور القاهرة إلى حين وصول خورشيد باشا من الإسكندرية ، على اعتبار أنه رجل عسكرى ليست له دراية بالسياسة وأمور الحكم [٧١]

وصل خورشيد باشا إلى بولاق فى أواخر مارس ١٨٠٤، وهو خامس من تقلد ولاية مصر فى نحو سنتين.[٧٢] وقد ثبته السلطان فى منصبه بعد ذلك ، فقد ورد فرمان توليته فى ٣٠ أبريل ١٨٠٤[٧٣] على أن خورشيد كان يخشى من محمد على ، ولذا فقد أخذ يدبر الحيل للتخلص منه، فاستصدر فرمانًا من الباب العالى يقضى بعودة الجند الألبان ورؤسائهم إلى بلادهم ، وقد أدرك محمد على السر من وراء هذا الفرمان ، وأن الغرض منه إبعاده عن مصر . وقد تظاهر بالإذعان وأنه يعد عدته للرحيل ، وعندما علم العلماء بذلك طالبوه بالبقاء فى مصر، واضطربت القاهرة لنبأ الرحيل، وأغلقت

الأسواق والدكاكين ، وكاد حبل الأمن أن يضطرب ، وهنا قبل محمد طلب العلماء وأعلن استمرار بقائه فى مصر إرضاء لهم. وعندما تأكد خورشيد من فشل مؤمراته اضطر إلى الإذعان مؤقتًا للأمر الواقع والاستعانة بمحمد على فى محاربة المماليك بالصعيد لإبعاده هو وجنوده عن القاهرة حتى يخلو له الجو فيها(٧٤) .

سار محمد على، على رأس جنوده الألبان فى ١٧ أكتوبر ١٨٠٤ لمطاردة المماليك فى الصعيد تنفيذًا لأوامر خورشيد ، وتمكنت قواته من الاستيلاء على المنيل فى ١٥ مارس ١٨٠٥، وخلال انهماكه فى محاربة المماليك هناك كان خورشيد يدبر ضده المؤامرات والمكائد فى القاهرة للتخلص منه خوفًا من منافسته على السلطة فى مصر ، فطلب من الباب العالى إمداده بقوات جديدة ، وصادف هذا الطلب استجابة لدى الدولة العثمانية، لأنها لم تكن مرتاحة لضعف نفوذ ممثلها الرسمى فى مصر ، فأرسلت إليه جيشًا من الجنود الدلاة المشهورين بالجرأة والتهور فى القتال· واحتشد هذا الجيش فى بلاد الشام تمهيدًا لانتقاله إلى مصر· وعندما وصل نبأ هذا الجيش إلى محمد على وجد أنه هو المقصود بقدومه، ولذا فقد أسرع بالعودة إلى القاهرة ليحبط هذه المؤامرة قبل أن تتوطد أقدام هذا الجيش فى مصر(٧٥)

وكان خورشيد قد انتقل إلى القلعة فى ٢٠ مايو ١٨٠٤(٧٦)وكان انتقاله إليها دليلاً على التجائه إلى القوة المسلحة فى إخضاع القاهرة إذا لزم الأمر· وقد تعددت مظالمه وتدخل العلماء أكثر من مرة لرفعها عن الناس ، وفى مايو ١٨٠٤ فرض ضريبة جديدة على أصحاب الحرف الذين ضجوا منها نظرًا لما كانوا يعانونه من الضيق وسوء الحال، ولذا فقد أغلقوا حوانيتهم وذهبوا إلى الجامع الأزهر يشكون أمرهم إلى العلماء ، فمر محافظ المدينة ورئيس الشرطة فى الأسواق ينادون بالأمان وفتح الحوانيت فلم يفتح منها إلا القليل(٧٧) .

واستمرت الجماهير فى هياج يومى ٢٧ و٢٨ مايو ١٨٠٤ وفى اليوم الثالث ٢٩ مايو اشتد الهياج وأغلقت جميع الدكاكين واحتشدت الجموع بالجامع الأزهر ومعهم الطبول وصعد الكثيرون منهم إلى المنارات يصرخون ويدقون الطبول ، ووصل نداءهم إلى نواح عديدة فى القاهرة، كما سمعه خورشيد وهو فى القلعة ووصله خبر التجمهر ، فأرسل إلى السيد عمر مكرم نقيب الأشراف رسولاً يخبره بأنه رفع الإتاوة عن فقراء

الناس، ويطلب إليه فض الجماهير ولكن الأخير طلب منه رفع الإتاوة عن الجميع فرجع الرسول بذلك إلى الوالى ، وحضر الأغا محافظ المدينة ومعه عدد من الجند وجلس بالغورية يأمر الناس بفتح الدكاكين ويتوعد من يتخلف ، فلم يستجب له أحد فاضطر خورشيد فى النهاية وأمام هذا الموقف إلى إلغاء الإتاوة، ومن ثم فقد تفرقت الجماهير[٧٨]. وكان لهياج الجماهير وإغلاقهم للأسواق والدكاكين الأثر الكبير فى نفوس المصريين؛ لأنهم تأكدوا أن فى استطاعتهم رفع المظالم باجتماعهم وقيامهم بالإضراب العام الذى هو أقرب إلى العصيان المدنى وامتناعهم عن دفع الضرائب

وبالرغم من إلغاء خورشيد للإتاوة الشديدة فإن غضب المصريين وثورتهم عليه لم تهدأ تماماً بسبب الفظائع التى ارتكبها الجند الدلاة الذين استحضرهم وكان عددهم حوالى ثلاثة آلاف ، فقد أخذوا يعيثون فى الأرض فساداً ، ويرتكبون الجرائم ، ويعتمدون على الأموال والأرزاق والأرواح ، وتغاضى خورشيد عن سيئاتهم وجرائمهم ليستعين بهم على محاربة محمد على[٧٩]

رجع محمد على من الصعيد إلى القاهرة ليبدأ الصراع بينه وبين خورشيد وجهًا لوجه، وأخذ كل منهما يعد العدة للإنتصار على خصمه. ولجأ محمد على إلى الشعب والعلماء والأعيان من أجل استمالتهم فى معركته ضد الوالى العثمانى ، وكانت الجماهير ناقمة على خورشيد، وتعتبره مسئولاً عن جرائم الجند الدلاة ومظالمهم فهو الذى جلبهم لتأييد سلطته ومن ثم فقد أخذ تيار السخط ينمو ويتعالى ولم يبق بين السخط والثورة إلا أن تقع حادثة تشعل نار الثورة [٨٠]

إندلعت ثورة المصريين فى وجه خورشيد فى أول مايو ١٨٠٥ عندما اعتدى الجند الدلاة على أهالى مصر القديمة وأخرجوهم من بيوتهم، ونهبوا مساكنهم وأمتعتهم ، وقتلوا بعض الأهالى فكثر الهياج هناك وذهب جميع سكانها رجالاً ونساءً إلى الأزهر، وانتشر خبر الاعتداء والهياج بسرعة شديدة فى أرجاء المدينة واجتمع العلماء وذهبوا إلى خورشيد وخاطبوه فى وضع حد لفظائع الجند الدلاة ، فأصدر أمرًا لهم بالخروج من بيوت الناس وتركها لأصحابها ، ولكن الجنود لم يخضعوا ولم ينفذوا هذا الامر، ولذا فقد خاطبه العلماء ثانية، فطلب منهم مهلة ثلاثة أيام ليرحل الجنود عن المدينة

بأكملها ، وعندما علمت الجماهير بذلك اشتد ضجيجهم وزاد سخطهم وبدأت ملامح الثورة فى الأفق، ولم تلبث أن عمت الثورة أنحاء القاهرة فى اليوم التالى ٢ مايو ١٨٠٥ واجتمع علماء الأزهر وأضربوا عن إلقاء الدروس وأغلقت الدكاكين فى المدينة وأسواقها. وحاول خورشيد الاستنجاد بالعلماء لوقف ثورة الجماهير، إلا أنهم رفضوا إيقاف هياج الجماهير[٨١].

وكان أهالى القاهرة الذين كانوا يتوقعون مواجهة لامفر منها مع خورشيد وجنوده قد قاموا بتسليح أنفسهم وقد باع الفقراء منهم ملابسهم ليشتروا السلاح ، وقام عمر مكرم نقيب الأشراف بدور فى إثارة الصناع «طوائف الحرف» ونظمهم فى وحدات مقاتلة أشبه بالحرس الوطنى الذى أقامه الثوار أثناء الثورة الفرنسية ، وأقام الناس المتاريس، ووقف النساء والأطفال على أسطح المنازل مسلحين بالحجارة، وهم جميعًا يطيعون أوامر قائدهم السيد عمر مكرم طاعة عمياء . وكان نقيب الأشراف يدفع المال للصناع الذين ليس لهم مصدر للرزق طوال التسعة أيام هى عمر الثورة ضد خورشيد[٨٢] . ويذكر الجبرتى أن محمد بك الألفى الزعيم المملوكى الشهير كان على صلة بعمر مكرم أثناء ثورة المصريين ضد خورشيد، وأنه كان يمده بالمال ليعطيه بدوره للثوار على اعتبار أن عمر مكرم كان يعده بأن هذه الثورة هى من أجل إعادته إلى الحكم[٨٣].

واتفقت رؤية العلماء على أن يضعوا حدًا لثورة الجماهير بشرط أن يطرد خورشيد الجند الدلاة من القاهرة وضواحيها فى مدة ثلاثة أيام ، وانتظر العلماء أن تنتهى هذه المدة . وعمل محمد على خلال هذه الأزمة على التردد على كبار الشيوخ وضم صوته إلى شكواهم، ووعدهم ببذل جهوده ووساطته لتأييدهم[٨٤]

وخلال هذه الأزمة عمل خورشيد على إقصاء محمد على من مصر ، وسعى حثيثاً لدى الباب العالى من أجل ذلك ، ونجح فى مسعاه وورد فرمان من الدولة العثمانية بتقليد محمد على ولاية جدة. وكان الغرض من هذا التعيين إبعاد محمد على عن مصر بأية وسيلة ولو بترقيته، وابتهج خورشيد لورود هذا الفرمان ، وظن أنه سيتخلص بذلك من خصمه العنيد . وقبل محمد على هذا التعيين فى الظاهر ولم يرفضه، وقام خورشيد فى ٣ مايو بتقليده خلعة الولاية ، وأمر بتلاوة الفرمان القاضى بتعيينه والياً

على جدة[٨٥] . وقد اكتسب محمد على من وراء هذا التعيين مركزًا جديدًا، فقد زادت مرتبته وأوقعت الدولة العثمانية نفسها بين يديه عندما جعلت منه باشا وعينته واليًا على جدة لأنها رفعته بذلك إلى مصاف المتنافسين على ولاية مصر [٨٦]

إنتهت المدة التى حددها لجلاء الجنود الدلاة عن القاهرة فى ١١ مايو ١٨٠٥ دون أن يتمكن خورشيد من إبعادهم عن العاصمة، ولذا فقد اجتمع العلماء ببيت القاضى فى ١٢ مايو ١٨٠٥ وطلبوا منه أن يرسل فى استدعاء وكلاء الوالى ليحضروا مجلس الشرع، فأرسل القاضى يستدعيهم على عجل فحضروا ، وعندما انعقد المجلس عرض زعماء الشعب مطالبهم وهى :

١- ألا تفرض من اليوم ضريبة على المدينة إلا إذا أقرها العلماء وكبار الأعيان .

٢- أن تجلو الجنود الدلاة عن القاهرة وتنتقل حامية المدينة إلى الجيزة .

٣- ألا يسمح بدخول أى جندى إلى المدينة حاملاً سلاحه .

٤- أن تعاد الاتصالات فى الحال بين القاهرة والوجه القبلى[٨٧] أى تعاد الاتصالات مع المماليك هناك .

ولما كان خورشيد يدرك أن السيد عمر مكرم هو القائد الفعلى لثورة المصريين هذه فقد عمل على إلقاء القبض عليه وزعماء الشعب من العلماء، وأرسل إليهم يستدعيهم إلى القلعة ليتشاور معهم فى الأمر ، ولكن عمر مكرم والعلماء فطنوا إلى غرضه ومكيدته فرفضوا الذهاب إلى هناك[٨٨]ولذا فقد حنق عليهم، وعدّ امتناعهم هذا تمردًا وعصيانًا يستوجب رفض إجابة المطالب التى قرروها . وأدى هذا الرفض من جانب خورشيد إلى التعجيل بسير الحوادث؛ فاجتمع زعماء الشعب فى اليوم التالى ١٣ مايو ١٨٠٥ بدار المحكمة الشرعية، واتفقوا على عزل خورشيد وتعيين محمد على واليًا بدلاً منه، ثم ذهبوا إلى الأخير ليبلغوه قرارهم ، فأظهر ترددأ وامتناعًا حتى لا يقال عنه إنه المحرض على هذه الثورة، فألح عليه الزعماء فَقبل بعد أن أخذوا عليه العهود والمواثيق وأن يسير بالعدل وألا يبرم أمرًا إلا بمشورتهم، وقام السيد عمر مكرم والشيخ «عبد الله الشرقاوى» شيخ الأزهر فى ذلك الوقت وألبساه خلعة الولاية[٨٩] وبهذه الطريقة تولى محمد على حكم مصر بإرادة الشعب ، وتعد تلك الواقعة أول مرة فى

تاريخ مصر يعزل فيها الشعب حاكمه ويعين بدلاً منه. وإذا كان المصريون قد ولّوا من قبل طاهر باشا قائمًا مقامًا حتى يصل الوالى الجديد أو يصل فرمان التولية فقد اقتصر دورهم هنا على التولية، أما فى هذه المرة فقد كان دور المصريين مزدوجًا فقد عزلوا الوالى وعيّنوا بدلاً منه واليًا آخر .

تمكن الثوار بعد ذلك من محاصرة خورشيد فى القلعة، وظلت الحرب بين الشعب وبين الوالى المعزول سجالاً إلى أن جاء القاهرة رسول من الآستانة فى ٩ يوليو ١٨٠٥ يحمل فرمانًا يتضمن تعيين محمد على باشا والى جدة سابقًا واليًا على مصر وعزل خورشيد باشا عن الولاية . وعندئذ انتهت الحرب بين المصريين وخورشيد مع استمرار حصارهم للقلعة ، إلى أن أذعن الأخير فى ٥ أغسطس ١٨٠٥ ونزل عن القلعة ورحل عن البلاد، فكان آخر والٍ عثمانى حكم مصر بإرادة الدولة العثمانية وأمرها [٩٠]

وصل محمد على إلى غرضه الأساسى، ولكنه وجد نفسه فى مركز لا يقل سوءًا عن مركز سابقيه ، فقد كانت تواجهه مشكلة دفع رواتب الجند المتأخرة، وقد اتبع محمد على سياسة حكيمة إزاء هذه المشكلة ، وهى أنه أوضح للعلماء والقيادات الشعبية ضرورة جمع المال من المصريين منعًا لهياج الجند وتألبهم عليه، فوافقوه وساعدوه على ذلك، وهكذا حصل محمد على على الأموال اللازمة من غير أن يعرض نفسه لكراهية المصريين ، وإن لم يمنعه ذلك من الالتجاء أحياناً إلى الأساليب التعسفية فى جمع هذا المال[٩١]

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كانت السياسة التركية خالصة النية نحو محمد على وكانت تنظر إليه بعين الكراهية فقد تولى حكم مصر عن طريق ثورة شعبية ولم يتول الولاية عن طريق السلطان ، حقيقة أن السلطان العثمانى قد أصدر فرمانًا بتوليته على مصر، ولكن هذا لم يكن دليلاً على خلاص نية الباب العالى تجاهه، ولكن كان مجرد حل مؤقت تتفادى به ثورة المصريين إلى أن تحين الفرصة فتسترجع سلطتها وهيبتها فى البلاد ، ولذلك فقد أوفدت بعد ذلك «قبطان باشا» على رأس أسطول حربى عثمانى ليرقب الأحوال فى مصر ويضع عينه على الأحداث، ويتخذ من القرارات النهائية ما يراه مناسبًا لمصلحتها. وقد وصل هذا الأسطول إلى أبى قير فى ١٧ يولية ١٨٠٥ -أى فى الوقت الذى كان فيه خورشيد متحصنًا فى القلعة - وكانت مهمة قبطان

باشا الظاهرة هى استنزال خورشيد باشا الوالى المعزول من القلعة ، إلا أن الباب العالى خوّله السلطة المطلقة فى تثبيت محمد على فى الولاية أو عزله عنها . وقد راسله الألفى زعيم المماليك وعرض عليه أن ينضم بقواته إلى سلحدار خورشيد باشا الذى كان ما زال بالجيزة يناوئ محمد على ، وأن ينضم المماليك جميعًا إلى قوات قبطان باشا الذى اصطحبهم معه ويزحفوا إلى القاهرة لينتزعوها من محمد على ويطردوا الجند الألبان من البلاد(٩٢)

ولم يلبث أن قرر المماليك مهاجمة القاهرة فى ١٦ أغسطس ١٨٠٥ أثناء الاحتفال بكسر الخليج الذى سيحضره محمد على ١٨٠٥ ليضربوا ضربتهم قبل رحيل قبطان باشا ليشهد بنفسه مدى قوة المماليك وشدة بأسهم فينحاز إليهم ويولى واحدًا من زعمائهم حكم مصر ، وقد اتفقوا من أجل ذلك سرًا مع بعض رؤساء جند «محمد على» على أن ينضم هؤلاء إليهم إذا هم دخلوا المدينة، وعلم محمد على بهذه المؤامرة، وقرر أن يوقع بالمماليك ، واتفق سرًا مع بعض رجاله الأمناء على أن يتصلوا بالمماليك ويتظاهروا بالإخلاص لهم ويستدرجوهم إلى دخول القاهرة. وفى اليوم المحدد هجم المماليك على العاصمة فى قوة تبلغ ألف شخص ، وحاولوا استمالة العلماء، فرفض هؤلاء مساعدتهم ونصحوهم بالعودة من حيث أتوا، فانقلبوا خائبين ودب الفشل فى صفوفهم فهرب فريق منهم من أجل النجاة، أما الباقون فقد قاتلهم جند محمد على، وانهزم المماليك، ومن ثم فشلت هذه المؤامرة. وانتهز محمد على هذه الفرصة فاستولى على الجيزة التى تحت سيطرتهم وانتصر على المماليك وعلى سلحدار خورشيد باشا الذى اضطر إلى التسليم والتخلى عن جنده وذخائره واللحاق بسيده فى الإسكندرية(٩٣) ودعّمت هذه الأحداث مركز محمد على فى مصر ، وجعلت قبطان باشا يقتنع بأنه هو الأحق بالتأييد، ولذا فقد رحل عن مصر فى أكتوبر ١٨٠٥ ومعه خورشيد باشا الوالى المخلوع(٩٤)

لم يكد محمد على يتخلص من هذه الأزمة حتى وجد نفسه أمام أزمة أخرى ، ذلك أن انجلترا – التى كانت مؤيدة للألفى ـ سعت لدى الباب العالى لإسناد حكم مصر إليه بدلاً من محمد على ، ووجد هذا السعى أذناً صاغية لدى السلطان العثمانى الذى لم يكن مرتاحًا لمحمد على؛ فأصدر فرمانًا بتولية «موسى باشا» مكانه وتقليد محمد

على ولاية سلانيك . وأرسلت الدولة العثمانية أسطولاً بحريًا بقيادة صالح باشا قبودان كى يتم النقل والتغيير دون مقاومة ، ووصل هذا الأسطول إلى الإسكندرية فى أول يوليو١٨٠٦ . وتظاهر محمد على بالقبول ولكنه استعان بالعلماء الذين كتبوا التماسًا للسلطان ولقبطان باشا يطلبون فيه إبقاء محمد على ويبدون عجزهم عن ضمان المماليك إذا هم عادوا إلى حكم البلاد، وبالإضافة إلى ذلك فقد لمس قبطان باشا بنفسه ما عليه المماليك من تفرق للكلمة وانشقاق ، فكتب إلى السلطان يؤيد محمد على. كما أرسل محمد على الهدايا إلى السلطان مع ابنه إبراهيم كرهينة، وانتهت الأزمة بتثبيت محمد على واليًا على مصر فى نوفمبر ١٨٠٦ ، وبتثبيته انتهى حكم الدولة العثمانية المباشر لمصر التى أصبح أمرها بيد محمد على[٩٥].

ولم تلبث أن وقفت العناية الإلهية إلى جانب محمد على ، ففى الوقت الذى انتهت فيه محاولة الباب العالى نقله بالفشل، جاءه الخبر بوفاة عثمان بك البرديسى أحد زعماء المماليك الطامحين لولاية مصر وأحد الذين كان محمد على يخشى منهم على عرشه ، فقد عاجلته المنية فى ١٩ نوفمبر ١٨٠٦، ودفنه أتباعه فى الصعيد وولوا عليهم شاهين بك المرادى خلفًا له، وكان الأخير خصمًا لدودًا للألفى فكانت ولايته عائقًا حال دون توحيد صفوف المماليك وسبباً لاطمئنان محمد على من ناحية أخرى. وابتهج محمد على لموت أحد خصومه ومنافس عتيد له على الحكم، وبعد شهرين من وفاة البرديسى مات الألفى خصمه الآخر الذى توفى فى ٢٨ يناير ١٨٠٧[٩٦]

وبموت الألفى انتهت آخر عقبة كانت تواجه سلطة محمد على ، فقد استتب له الأمر داخل البلاد[٩٧]، فقد تفرقت قبائل البدو التى كانت متجمعة حول الألفى، وأرسل بعضهم إلى محمد على يطلب الأمان ، أما مماليك الألفى فقد ذهبوا إلى الأمراء المماليك فى الصعيد فوجدوا منهم صدًا ولم يحصل وفاق بينهم ، ومن ثم فقد انعزلوا عنهم إلى أن عقدوا صلحًا مع محمد على[٩٨]. وقد فرح محمد بموت الألفى وكافأ من نقل إليه الخبر وبشره به وأعطاه فروة سمر ومبلغاً من المال. وكان محمد على يقول قبل وفاة الألفى «مادام هذا الألفى موجودا لا يهنأ لى عيش ، ومثالى أنا وهو مثال بهلوانين يلعبان على الحبل ، لكن هو فى رجله قبقاب» وقال بعد موته «الآن طابت لى مصر ، وما عدت أحسب لغيره حساب»[٩٩]

مات الألفى فى الوقت الذى كان محمد على يجهّز جيشًا لمحاربة المماليك فى الصعيد، وقد أصيب أثناء زحفه إلى الصعيد بالكوليرا، لكن طبيبه الخاص عنى به وساعدته بنيته القوية على قهر المرض فشفى منه . وتمكن محمد على من هزيمة المماليك بالقرب من أسيوط ، واحتل المدينة بعد ذلك ، وهناك جاءته أخبار الحملة الإنجليزية(١٠٠) ، ولذا فقد عقد صلحًا مع المماليك حتى يتفرغ لهذه الحملة(١٠١)

وهكذا عندما جاء فريزر إلى الإسكندرية كان محمد على هو سيد البلاد المطلق دون منازع ، وخاصة بعد موت كل من البرديسى والألفى عدويه اللدودين، وقد استطاع الوصول إلى الحكم بعد مناورات وتخطيط متقن، فقد تحالف مع المماليك فى البداية، ثم انقلب عليهم وحاربهم، واستمال بعد ذلك زعماء الشعب الممثلين فى العلماء والشيوخ وساندته هذه الزعامة فى صراعه مع خورشيد باشا الوالى العثمانى ونجحت فى النهاية فى إسقاط هذا الأخير وتولية محمد على بشروطها فى سابقة تعد الأولى فى تاريخ مصر قاطبة ، كما وقفت هذه الزعامة إلى جانبه فى مواجهة أزمة مرتبات الجند فساعدته على جمعها من الشعب دون أن يضج مثلما كان يفعل مع الولاة العثمانيين السابقين، كما وقفت إلى جانبه فى وجه المؤامرات الإنجليزية والعثمانية لعزله ونقله إلى أية ولاية أخرى ونجحت فى تثبيته على عرش البلاد. وقد تمرست هذه الزعامة الشعبية على المقاومة والنضال أثناء الثورة على كل من البرديسى وخورشيد باشا ولعبت دوراً مهمًا فى إثارة الجماهير وقيادتها خلال هاتين الثورتين ومن ثم فقد كان من السهل عليها جمع المتطوعين وإرسالهم إلى ميدان القتال فى رشيد والرحمانية لمقاومة الإنجليز هناك . هذا إلا أن الحملة فقدت عاملاً مهمًا كانت تعتمد عليه وهو الألفى الذى مات قبل وصولها بحوالى أربعة أشهر مما فتّ فى عضد المغيرين وإيقانهم بالفشل الذى حدث بالفعل .

ا لهوامش

(١) عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، الجزء الثانى، مطبعة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٢٩، ص ٢٧٨ نقولا ترك ، مذكرات نقولا ترك ، / ص ١١٨

(٢) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ، الجزء الثالث، دار الجيل ، بيروت ، (د.ت) ص ١٥٤.

(٣) الرافعى ، السابق ، ص ٣١٥

(٤) الجبرتى ، السابق ، ج٢ ص٥٠١ – ٥٠٣ ، نقولا ترك ، السابق ص١١٦ –١٢٠ ، الرافعى ، السابق ، ص ٣١٥ – ٣١٦ ، ٣١٨ –٣١٩

(٥) السابق ، ص ٢٧٨

(٦) السابق ، ص ص ٢٨٠ – ٢٨١.

(٧) السابق ، ص ص ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، نقولا ترك ، السابق ، ص ١٦٩

(٨) الجبرتى ، ج٣، ص ١٥٦

(٩) الرافعى ، السابق ، ص ص٣٣١ –٣٣٢

(١٠) السابق ، ص٣٣٢ ، الجبرتى ، السابق ، ج٢ ص ص٥٥٥–٥٥٦

(١١) الرافعى ، السابق ، ص٣٣٥

(١٢) عبد الله محمد عزباوى، الحركة الفكرية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب ، عين شمس ١٩٧٦ ص ص ٢٨١ – ٢٨٢.

(١٣) الرافعى ، السابق ص ، ص٢٨٤–٢٨٦

(١٤) السابق ، ص٣١١

(١٥) عفاف لطفى السيد ، مصر فى عهد محمد على، ترجمة عبد السميع عمر زين الدين، المشروع القومى للترجمة ، العدد ٥٥٤ ، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٤ ص٥١.

(١٦) السابق ، ص٥٣

(١٧) الرافعى ، السابق ، ص٣١١

(١٨) عفاف لطفى السيد ، السابق ، ص٥٣

(١٩) السابق ، ص ص٥٢ ، ٥٤

(٢٠) السابق ، ص ٥٤ .

(٢١) السابق ، ص ٥٥ .

(٢٢) الرافعى ، السابق ، ص ص ٣١٢ - ٣١٣ .

(٢٣) السابق ، ص ٣١٣ .

(٢٤) السابق ، نفس الصفحة ، عفاف لطفى السيد ، السابق ، ص ٦٤

(٢٥) الجبرتى ، السابق ، ص ٥٤٠

(٢٦) عفاف لطفى السيد ، السابق ، ص ٦٢

(٢٧) الرافعى ، السابق ، ص ٣١٣

(٢٨) الجبرتى ، السابق ، ص ٤٥٩ ، الرافعى ، السابق ، ص ٣١٤

(٢٩) الجبرتى ، السابق ص ٥١٢ ، الرافعى ، السابق ، ص ٣٢٤

(٣٠) الجبرتى ، السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٥

(٣١) الجبرتى ، السابق ج٢ ص ص٥٢٨ ، ٥٣٨ .

(٣٢) عفاف لطفى السيد ، السابق ، ص ص ٧٠-٧١

(٣٣) السابق ، ص٧٢

(٣٤) الجبرتى ، السابق ، ج٢ ، ص ص ٥٥٢,٥٦١-٥٦٥ ،ج٣ ،ص ١٥٦، نقولا ترك ، السابق ، ص ص ١٢٦ - ١٢٨ ، الرافعى ، السابق ص ص ٣٦٥-٣٦٦

(٣٥) الجبرتى ، السابق ، ج٢ ص ص ٥٧٠-٥٧١ ، نقولا ترك ، السابق ، ص ١٢٨ ، الرافعى ، السابق ص ٣٦٧ .

(٣٦) الجبرتى ، السابق ، ٥٧١، ٥٥٤ ، الرافعى ، السابق ، ص ٣٦٧

(٣٧) الرافعى ، السابق ، ص ٣٦٨

(٣٨) نقولاترك ، السابق ، ص ١٢٩

(٣٩) الجبرتى، السابق، ص ٥٧٥ - ٥٧٦ & نقولا ترك، السابق، ص١٣١- ١٣٢، ١٣٤، الرافعى، السابق، ص ٣٦٩.

(٤٠) الجبرتى ، السابق ، ج٣ ، ص ١٥٦

(٤١) الرافعى ، السابق ، ص ٣٧٠

(٤٢) السابق ، نفس الصفحة

(٤٣) نفسه

(٤٤) الجبرتى ، السابق ، ص ٥٧٦-٥٧٧ & نقولا ترك، السابق، ص ١٣٣، الرافعى، السابق، ص٢٧٠-٣٧١

(٤٥) نقولا ترك، السابق ، ص ١٣٤، الرافعى، السابق ،ص٣٧١

(٤٦) عفاف لطفى السيد ، السابق ، ص ٧٤

(٤٧) الجبرتى ، السابق، ص ٥٦٨، ٥٩٣ ، نقولا ترك، السابق، ص ١٣٦، الرافعى، السابق ص ص٣٧١-٣٧٢

(٤٨) نقولا ترك، السابق ، ص ١٣٨

(٤٩) السابق، ص ١٣٧

(٥٠) الجبرتى ، السابق ، ص ص ٥٩٤، ٥٩٥ ، الرافعى ، السابق ، ص ص ٣٧٢-٣٧٣

(٥١) نقولا ترك، السابق ، ص ١٥٩ ، عفاف لطفى السيد ، السابق ، ص ٧٤

(٥٢) الجبرتى ، السابق، ص ص ٦١٦، ٦٢١ & نقولا ترك، السابق، ص ص ١٦٤-١٧٠& الرافعى، السابق ص ص ٣٤٦-٣٤٧

(٥٣) الجبرتى ، السابق، ص ٦٠٩، نقولا ترك، السابق، ص ١٥٨

(٥٤) نقولا ترك، السابق، ص ١٥٨

(٥٥) الجبرتى ، السابق ، ٦٢٦ ، الرافعى ، السابق ، ص ٣٥٠

(٥٦) نقولا ترك، السابق، ص ص ١٧٧-١٧٨

(٥٧) نقولا ترك، السابق ، ص ص ١٧٨-٢٠٣,١٨١,١٧٩ ، الرافعى، السابق ، ص ٣٥١

(٥٨) نقولا ترك، السابق، ص ١٨٤

(٥٩) الجبرتى ، السابق ، ص ٦٠٣

(٦٠) نقولا ترك، السابق، ص ص١٥٤-١٥٥

(٦١) الجبرتى ، السابق ، ص ٦٣٣

(٦٢) عفاف لطفى السيد ، السابق ، ص٧٥

(٦٣) الجبرتى ، السابق ، ص٦٣٣ ،ج٣ ، ص١٧٤ ، الرافعى ، السابق ، ص ص ٣٥٣ - ٣٥٤

(٦٤) نقولا ترك، السابق، ص١٥٥ ، عفاف لطفى السيد ، السابق ، ص٧٥

(٦٥) الجبرتى ، السابق ، ج٢ ، ص٦٣٥

(٦٦) الرافعى ، السابق ، ص ٣٦٥

(٦٧) نقولا ترك، السابق، ص ١٨٩ ، الرافعى ، السابق ، نفس الصفحة

(٦٨) نقولا ترك، السابق، نفس الصفحة

(٦٩) الجبرتى ، السابق، ج٢، ص ٦٣٩، نقولا ترك، ص ١٨٧، الرافعى، السابق ، ص ص ٣٥٨-٣٥٩

(٧٠) نقولا ترك ، السابق ، ص ١٩٢

(٧١) السابق، ص ١٩١

(٧٢) الجبرتى ، السابق ، ص ٦٤١ ، الرافعى ، السابق ، ص ٣٥٩

(٧٣) الجبرتى ، السابق ، ص ٦٤٩، نقولا ترك، السابق ، ص ص ٢٠٤-٢٠٥

(٧٤) الجبرتى ، السابق ، ج٣، ص ٢١-٣١ ، الرافعى ، السابق ، ص ٣٦٠

(٧٥) الجبرتى، السابق، ص ، ص ٥٧-٥٩، الرافعى، السابق، ص٣٦٠، عفاف لطفى السيد، السابق، ص ص٧٧-٧٨

(٧٦) الجبرتى ، ج٢، ص ، ص٦٥٢-٦٥٥ & نقولا ترك ، السابق ، ص٢٠٧

(٧٧) الرافعى ،السابق، ص٣٦١

(٧٨) الجبرتى ،ج٣، ص٦ ، الرافعى ، السابق ، ص٣٦٢

(٧٩) الرافعى ، السابق ، نفس الصفحة.

(٨٠) السابق ، ص ٣٦٣

(٨١) الجبرتى ، السابق ، ج٣، ص ص ٦٠,٦١

(٨٢) الجبرتى ، السابق، ص ص ٦٤-٦٥-٦٧، عفاف لطفى السيد، السابق، ص ص٨٥، ٨٧

(٨٣) الجبرتى ، السابق ، ص ١٥٧

(٨٤) الرافعى ، السابق ، ص ٣٦٦ .

(٨٥) الجبرتى ، السابق ، ص ٦٠، الرافعى، السابق ، ص ص ٣٦٦ ، ٣٦٧، عفاف لطفى السيد، السابق ، ص ص ٨٢-٨٤

(٨٦) الرافعى ، السابق ، ص ٣٦٧ ، عفاف لطفى السيد، السابق ، ص ٨٤

(٨٧) الجبرتى ، السابق ، ص ٦٢ ، الرافعى، السابق ، ص ص ٣٦٧ ، ٣٦٨

(٨٨) الجبرتى ، السابق ، ص ٦٢ ، الرافعى، السابق ، ص ٣٦٩

(٨٩) الجبرتى ، السابق ، ص ص ٦٢ ،٦٣، الرافعى، السابق ، ص ص ٣٦٩ ، ٣٧٠

(٩٠) الجبرتى ، السابق ، ص ٧٤ ، الرافعى، السابق ، ص ٣٨٣

(٩١) عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، ص ص ٢٢ ، ٢٣ ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٠ ، محمد فؤاد شكرى ، مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، الجزء الثانى ، ص ٣٧٠ ، ٣٧٨ ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٨ .

(٩٢) الرافعى ، عصر محمد على ، ص ص ١٧، ١٨ .

(٩٣) الرافعى ، عصر محمد على ، ص ص١٩، ٢١ ، جى فارجيت ، محمد على مؤسس مصر الحديثة ، ترجمة محمد رفعت عواد، ص ٣٦، المشروع القومى للترجمة، العدد ٤٩٢ ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٣

(٩٤) الرافعى ، عصر محمد على ، ص ٢١

(٩٥) الرافعى ، عصر محمد على، ص ص ٢٦,٤٠، محمد فؤاد شكرى ، السابق ، ص ، ص ٤٦٤,٣٩٨، جى فارجيت ، السابق ، ص ص ٣٦ ،٣٧ .

(٩٦) الرافعى ، عصر محمد على ، ص ص ٤٠ - ٤٤

(٩٧) جى فارجيت ، السابق ، ص ٣٧

(٩٨) الجبرتى ، السابق ، ص ص ١٦٨، ١٦٩

(٩٩) السابق ، ص ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(١٠٠) السابق ، ص ١٧٨ ، الرافعى ، عصر محمد على ، ص ص ، ٤٤، ٤٥ .

(١٠١) الجبرتى ، السابق ، ص ١٨١ .

الأحوال الإقتصادية
لمدينة رشيد من ١٥١٧م
حتى مجىء حملة فريزر ١٨٠٧ م

د. نيفين مصطفى حسن سعد

كلية الآداب. جامعة المنوفية

مقدمة :

عرف الساحل المصرى على البحر المتوسط موانئ عديدة مثل رشيد ودمياط والإسكندرية والبرلس، وهى الموانئ التى ظلت تؤدى وظيفتها التجارية والاقتصادية كمنافذ تجارية استراتيجية لمصر فى هذا العصر . وقد حظيت مصر بموقع جغرافى فريد كان له عظيم الأثر فى مكانتها ومركزها بين دول العالم ، وذلك لوقوعها بين القارات الثلاث: أوروبا، وأفريقيا، وآسيا .

وتطل مصر على البحر المتوسط بساحل يمتد من رفح شرقًا حتى السلوم غربًا ، وظهرت أهميته من كونه حلقة اتصال بين الشرق والغرب[١] . ويتضح من ذلك كله أن مصر كانت بمثابة المعبر الرئيس للتبادل التجارى بين البلدان العربية والأوربية .

ومن موانئ مصر الهامة على البحر المتوسط ميناء رشيد؛ حيث كان بحكم موقعه على مصب فرع رشيد واتصاله بكل مراكز الإنتاج على النيل من أهم الموانئ المصرية التى لها مكانتها فى العصر العثمانى فى القرن التاسع عشر الميلادى ، حيث لعبت رشيد دورًا اقتصاديًا واستراتيجيًا هامًا لمصر على البحر المتوسط .

أولاً- وصف الميناء وأهميته بالنسبة لمصر

رشيد بلد جميل يقع عند ملتقى النيل بالبحر المتوسط ، حيث يتعانق البحران فتكون آية الله الخالدة

﴿... وهو الذى مرج البحرين هذا عذبٌ فرات وهذا ملحٌ أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجورا ﴾[٢]

أما ميناء رشيد فقد عرف باسم ميناء رشيد النيلى أو بندر رشيد . ومن جنوب رشيد تخرج قناة تصل إلى ميناء البرلس بين رشيد و دمياط ، و هو مفتوح طوال العام ، وله مدخلان: الشمالى للسفن المسيحية، و الغربى للسفن الإسلامية .[٣]

وتبعد رشيد عن الإسكندرية بنحو ستين ميلاً ، وهى من أجمل مدن مصر بعد القاهرة وميناؤها أغنى من ميناء الإسكندرية[٤] وذلك لتدهور مدينة الإسكندرية حتى صارت مدينة خربة قبيل دخول العثمانيين مصر[٥] .

وأدى ضعف صلة الإسكندرية بموانئ الشام و الدولة العثمانية إلى ظهور كل من رشيد و دمياط كميناءين منافسين للإسكندرية فى مركزها التجارى ، و فى اجتذاب أكبر عدد من السفن وخصوصاً تلك التى تتردد على موانئ الشام(٦) .

وعقب الغزو العثمانى لمصر سنة (٩٢٣هـ /١٥١٧م) قام السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠م) بزيارة رشيد و أشاد بها كثغر من الثغور المصرية(٧) حيث أصبحت مدينة مزدحمة مأهولة بالسكان و فيها تسهيلات أكثر من مدينة الإسكندرية(٨).

احتلت رشيد مكانة اقتصادية هامة فى العصر العثمانى نظراً لموقعها الذى أشرنا إليه و كانت تُعد مستودعاً للبضائع القادمة من القاهرة ومدن الصعيد حيث يتم نقلها بعد ذلك إلى الموانئ الأوروبية(٩)

وقد اعتنى العثمانيون برشيد بعد دخولهم مصر حيث تم إنشاء العديد من الفنادق و الوكالات والقيساريات بها(١٠) ، وما لبثت حتى أصبحت رشيد بعد ذلك أقرب الثغور المصرية من استانبول(١١) ولها معاملات تجارية مع كل من مرسيليا و جنوا والبندقية ، علاوة على تعاملها مع كريت وبلاد اليونان و أزمير ويافا و عكا وطرابلس الشام(١٢) وتُعد منطقة ميناء رشيد من أشد أحيائها ازدحاما و أكثرها جلبة و صخبًا إذ تراست به السفن الآتية من أقطار الشرق و الغرب ، و فى شارع البحر سار ملاحوها وقد اختلفت أزياؤهم و ألسنتهم و ألوانهم(١٣) ، وقد أعاقت خطورة بوغاز رشيد على حركة الملاحة فحرمت المدينة من أن تقوم بدورها المهم مثل دمياط وقد نشأت تلك الخطورة كما أشرنا من قبل من ضحالة مياهه بحيث لم يكن يجرؤ على عبوره سوى البحارة الأكفاء من أهل رشيد الذين كان اجتيازهم له يحتاج إلى قدر كبير من المهارة والجسارة معًا و تعتريهم مع ذلك مخاطر كثيرة . و قد ارتبطت رشيد بميناء الإسكندرية بخط ملاحى تحمل فيه البضائع بين البلدين على سفن صغيرة الحجم كى تتفادى عقبة البوغاز التى كانت تحول دون دخول المراكب الملاحية الكبيرة مباشرةً إلى النيل(١٤)

أسهم الموقع الجغرافى لمدينة رشيد فى العصر العثمانى فى تحديد حجم وطبيعة النشاط الاقتصادى داخلها، و انطلاقًا من ذلك يمكن القول بأن الموقع الجغرافى لمدينة رشيد على نهر النيل قد أسهم فى اتساع وتنوع النشاط الاقتصادى بها ، فضلاً عن كونها مركزاً تجاريًا بين الشرق و الغرب وكان لنفس العامل الجغرافى الفضل فى جعل النشاط الاقتصادى الزراعى أو الصناعى أو التجارى أكثر حجمًا و تنوعًا فى ميناء رشيد .

١. الزراعة و الحاصلات الزراعية و أهميتها الاقتصادية

شكلت الزراعة المصدر الأساسى لاقتصاد البلاد ، و الزراعة حقيقة هى بذرة مصر و نواتها بكل ما تعنى الكلمة اقتصاديًا و حضاريًا . و تشمل الثروة الزراعية كل عمل متصل بالزراعة و الإنتاج الزراعى بشقيه النباتى و الحيوانى[١٥]. فقد ذكر سافارى «أن الزراعة فى مصر من أقدم المهن، وبفضلها كوّنت مصر إمبراطورية عظيمة منذ القدم، و ساعدها على ذلك توفير المياه و البحيرات العذبة الصالحة للرى»[١٦] ، أما أوليفيه فقد ذكر «أن مناخ مصر المعتدل هو السبب الحقيقى الذى ساعد على ازدهار الزراعة بها ، فمناخ مصر الدافئ فى الشتاء و المعتدل فى الصيف ساعد على نمو الحاصلات الزراعية»[١٧] أما فولنى فأرجع زيادة الإنتاج الزراعى فى مصر إلى كل من الحرارة و الرطوبة معًا خاصة فى المناطق الواقعة بين القاهرة و رشيد[١٨] .

أما عن النشاط الزراعى فى رشيد فنجد أن الزراعة تمثل أحد أهم الأنشطة الاقتصادية بها . و قد زارت الكاتبة الإنجليزية «ماى E. May» رشيد سنة ١٧٩٨م فكتبت عنها تقول : «إن رشيد حقاً هى أجمل مكان على الإطلاق ، تحيط بها غابات من أشجار الليمون و البرتقال .. و الأراضى المنبسطة حولها مشوقة للغاية بمنظرها الجديد» [١٩] . و قد تركزت الزراعة فى رشيد فى ضواحيها وخاصة فى الجنوب منها حيث تمتد البساتين التى تعج بالأشجار مثل أشجار الفاكهة و النخيل و الليمون والتين والجميز[٢٠] ثم تليها الحقول التى تزرع الأرز والبرسيم وسائر المزروعات التقليدية الأخرى[٢١] و تزرع الأرض فى رشيد طوال العام ، حيث يتوفر لهذه الحقول ما تحتاجه من مياه الرى و ترفع المياه إلى هذه الحقول والحدائق من نهر النيل والترع المتفرعة عنه بواسطة السواقى والشواديف والطنابير[٢٢] .

وقد طبق نظام الالتزام على الأراضى الزراعية ، وكانت تباع إلى ملتزمين يشرفون على تحصيل الأموال منها وتوريدها إلى خزانة الروزنامة بعد استنزال جزء من قيمتها فى نظير ذلك[٢٣] .

و كان الملتزم فى الريف أداة الاتصال بين الحكومة و الفلاحين العاملين بدائرة التزامه و بمضى الزمن ازداد نظام الالتزام رسوخًا فى بنيان المجتمع المصرى[٢٤] . و قد أدخل نظام الالتزام إلى مصر فى النصف الثانى من القرن السابع عشر، حيث يعطى الملتزم ما يسمى بالتقسيط ـ السند ـ ليصبح بذلك ممثلاً للحكومة ، و يقوم بتحصيل الضرائب المقررة على أراضى القرية التى تقع فى التزامه ، بل و أكثر من المقرر . ويخضع مشايخ الحصة و فلاحوها لأوامره، و على الملتزم أن يدفع للروزنامة (بيت المال) ما يعادل ضريبة سنة و هو مايسمى حلواناً ، ويعطى الالتزام لمدة سنة أو أكثر . ورغم أن هذا النظام كان هدفه ضمان جباية الضرائب المفروضة ، و زراعة الأراضى إلا أنه لم يحقق ذلك إلا فى وقت قوة الدولة[٢٥]. وقد تطور نظام الالتزام فى صالح الملتزم فى القرن الثامن عشر ، فنجد أن الملتزم أصبح كمالك حقيقى للأرض ، وله الحق فى توريث حصة التزامه لأولاده أو مماليكه ، نظير حلوان أصبح يقدر بثلاثة أمثال فائض الحصة نفسها ، كما أصبحت المزادات صورية وأعفى الأتباع والمحاسبين من الحلوان ، و استخلص بعض ورثة الملتزمين حصص الالتزام بدون حلوان. ولطول بقاء الحصص فى يد الملتزمين وورثتهم أصبحت المصادر المعاصرة تطلق على حصصهم بلادهم أو قراهم أو تعلقهم[٢٦] . و قد أوجب نظام الالتزام تقسيم القرية إلى ٢٤ قيراطاً ، لا علاقة لها بقراريط الفدان المعروفة، فقد يصل القيراط منها إلى عشرات الأفدنة[٢٧]

وقد أشارت وثائق المحاكم الشرعية إلى العديد من الملتزمين ، فكان منهم التجار[٢٨] و رجال الأوجاقات العسكرية [٢٩]، و العامل الأساسى لظهور هاتين الفئتين من التجار ورجال الأوجاقات هو رأس المال نتيجة عملهم بحرفة التجارة . كذلك ظهرت فئة مشايخ العرب، و قلة من العلماء و الأشراف كملتزمين للأراضى الزراعية برشيد[٣٠] وإلى جانب الالتزام توجد الأوقاف، و قد اتسعت المساحة العامة لأراضى الأوقاف الزراعية فى العصر العثمانى فى ثغر رشيد ، و كانت الأوقاف متنوعة ما بين حدائق وبساتين[٣١] و أطيان غلال و محاصيل[٣٢].

أيضًا كان يتم تأجير بعض أراضى الأوقاف ، و كان الإيجار هو الوسيلة المثلى لاستغلال الأراضى الزراعية ، و كانت مدة الإيجار أحيانًا تصل إلى ثلاث سنوات فى أراضى الأوقاف الزراعية بصفة عامة[٣٣] مع وجود نماذج محدودة تشير إلى أن الانتفاعات الشرعية كانت تمتد لمدة ستين سنة[٣٤] .

وكان من الضرورى وجود ناظر للوقف ، من مهامه دوام مراقبة حالة الوقف و أن يكون الناظر حريصاً على إنفاق ما تقتضيه الصيانة للوقف ، كما أن له دورًا مهمًا فى الإشراف على جباية ريع الوقف ، و صرف المبالغ المقدرة للمستحقين بحجة الوقف ، مع إعداد حساب سنوى للوقف. ويتم تعيين ناظر الوقف و ذلك فى حالة عدم وجود شرط من الواقف بتقرير أشخاص بعينهم فى وظائف الوقف ، و يكون عمله موكل له من جانب قاضى الثغر ، ومع تعدد المهام الملقاة على عاتق الناظر يقوم بتعيين وكيلاً عنه يقوم بكافة مايقوم به الناظر و لا سيما فى تمثيل الوقف أمام القضاء فى المعاملات الاقتصادية المختلفة[٣٥] . ولناظر الوقف راتب مقرر من الوقف مشروط له و معين بحجة الوقف سواء أكان يصرف على أساس سنوى أم شهرى، و أحياناً يكون الراتب يومى[٣٦] ، و بالنسبة لنظام سداد الإيجار فقد نصت معظم عقود الإيجار على أن تسدد قيمة الإيجار السنوى للأراضى الزراعية على ثلاثة أقساط على مدار السنة و يرتبط ذلك بنظام المزروعات[٣٧] أيضاً كان يتم تحصيل إيجارات الأوقاف عن طريق أن يرسل ناظر الوقف من طرفه من يجمع الإيجار من نواحى أوقافه . و بالنسبة للأوقاف التى كان للدولة نوع من الإشراف عليها مثل أوقاف الحرمين و أوقاف الدشايش[٣٨] كانت الدولة تمد يد العون لجباة تلك الأوقاف فى تحصيل الإيجارات[٣٩] .

وكانت الأوقاف تخصص للإنفاق على أعمال الخير بأنواعها ، وكان كل ناظر وقف يقوم بتوزيع غلتها على الفقراء و شيوخ المساجد ، كما كان ينفق منها على شئون المساجد والمدارس والسبل و التكايا . و لكن كثيراً ما كان يستولى الجنود على غلة أراضى الأوقاف بموافقة الحكام [٤٠] . ومن هذه الأوقاف ثلاث قرى من البلاد التى تزرع الأرز بناحية رشيد، منها: إدفينا ، وديبى ، وحصة كتامه ، وقد ضم عبد الرحمن كتخدا هذه القرى لوقفية الأزهر والمساجد ، وجعل إيرادها وما يتحصل من غلة أرزها لمصاريف الخيرات و طعام الفقراء و المنقطعين[٤١] .

أما عن وضع الفلاحين فى أراضى الأوقاف فقد اختلف من وقف لآخر ، ومن حالة لأخرى على حسب طبيعة كل وقف ، و مع ذلك فإنه من المقرر وجود علاقة بين الواقف و فلاحى أراضيه ، وقد استطاعت بعض الأوقاف أحيانًا الحصول على إعفاء لفلاحيها من السخرة فى الأرض و الكلفة الواقعة على الفلاحين مع بقاء تلك الأعباء واقعة على عاتق الفلاحين فى الأوقاف الأخرى [٤٢] .

أما عن نظام رى الأراضى الزراعية فى رشيد ، فإما أن يتم عن طريق النيل أو عن طريق الآبار، فإذا ورد ماء الفيضان أخذ فى غمر الأراضى بواسطة شبكة واسعة من الترع ، فإذا كان الفيضان عاديًا أمكن رى الأراضى، و لكن بانخفاضه عن المستوى العادى كان يتعذر وصول الماء إليها ، وتتعرض البلاد لقحط كثيرًا ما صحبه الوباء وبالتالى يتناقص خراج الأرض . أما الفيضان العالى فكان يؤدى إلى إغراق الأراضى وإتلاف الزرع و هلاكه[٤٣] . و كانت الزراعة مقصورة على شريط ضيق من الأرض يمتد على جانبى النيل و الترع التى تخرج منه و من فروعه، و قد ذُكِرَ فى إحدى المصادر: «... أن مصر كانت كلها تروى من ستة عشر ذراعًا، و كانت أكثر البلاد جناناً ، و ذلك لأن جنانها كانت متصلة بحافتى النيل من أوله إلى آخره من حد أسوان إلى رشيد ، وكانت المرأة تخرج حاسرة (عارية الرأس) لا تحتاج إلى خمار لكثرة الشجر وذلك سنة (١١١٤هـ/١٧٠٢م)[٤٤] ».

وذكر على مبارك أن «المزروعات الموجودة برشيد تسقى بالآلات إلا فى أيام النيل فبالراحة ، وهذا فى غير أراضى الجنائن فتسقى بالآلات حتى فى زمن النيل »[٤٥] .

وكانت الأراضى الزراعية مقسمة إلى حياض يتبع بعضها البعض ، و كانت الحياض محدودة بجسر محاذ للنيل يحفظها من الفيضان وتبعًا لنظام الرى الحوضى كانت مساحة الأراضى الزراعية غير ثابتة إذ تزداد و تنقص تبعاً لدرجة الفيضان [٤٦] و كانت السنة الزراعية إذ ذاك مقسمة إلى ثلاثة أدوار، هى :

أولاً – الزراعة الشتوية (أكتوبر ـ مارس) و تشمل نوعين من المحاصيل البياضى وهى المحاصيل التى تزرع فى الأرض التى استفادت إلى الحد الأقصى من مياه الفيضان، و لم تعد بحاجة إلى الرى من الآبار حتى موعد الحصاد ، وأهم هذه المحاصيل هى : القمح، و الشعير، و الفول، و العدس و الحمص، و البازلاء، و الترمس.

أما المحاصيل الشتوية و هى المحاصيل التى تنمو فى الأراضى الزراعية التى يغمرها الماء غمرًا كاملاً ، أو لم يغمرها مطلقاً. و كان لا بد من الالتجاء فى هذه الحالة إلى الرى من مياه الآبار، و رغم أن تكاليف هذا النوع من الحاصلات كانت أكثر، إلا أن الربح الناتج منها كان أكبر، و أهم حاصلات هذا النوع: الكتان ، والدخان، والفول ، والبصل ، والخس(٤٧) .

ثانياً – الزراعة الصيفية (إبريل ـ يوليو) و يطلق عليها «قيظى أو صيفى» وكانت محاصيل هذا الموسم تعتمد فى ريها على مياه الآبار ، و أهم حاصلات هذا الموسم : القطن ، و الأرز ، و القصب ، و الذرة الصيفية (٤٨).

ثالثاً – موسم الزراعة النيلية أو الخريفية (أغسطس ـ أكتوبر) و تأتى بعد موسم الزراعة الصيفية عند بدء ارتفاع مياه النيل زمن الفيضان ، فإذا كانت الأراضى منخفضة عرفت باسم «الدميرى» و إذا كانت الأراضى مرتفعة و تحتاج إلى رفع المياه إليها بالوسائل الصناعية عرفت باسم «النبارى» و أهم حاصلات هذا الموسم الذرة ، البطيخ (٤٩).

وكانت الحاصلات الشتوية أهم الحاصلات الزراعية فى رشيد أما الحاصلات الصيفية و الدميرية أو النبارية فلم تكن على نفس الأهمية و كانت قليلة الإحتياج نظراً لاعتمادها على الرى من الآبار(٥٠) .

أم عن الأدوات المستخدمة فى الزراعة فقد ذكر الرحالة أن المصريين استخدموا الأدوات القديمة المعروفة بالساقية ، و الشادوف ، و المنطال ، و العجلة ذات القواديس ، و النورج ، و المحراث(٥١)

كما يزرع أيضًا العديد من الفواكه الأخرى فى مدينة رشيد ، ومنها القشطة وأشجارها مرتفعة وثمارها جميلة(٥٢) . و كذلك يزرع التوت الأبيض فى رشيد وثماره

جميلة ، و لكن أوليفيه ذكر «أن السكان فى مصر لا يحاولون الإفادة من أشجار التوت لتربية دودة القز و استخراج الحرير» [٥٣] .

كما وجدت أيضاً زراعة التين ، والجميز ، والمشمش ، والموز ، والخوخ ، والتفاح ، والبرقوق، والبرتقال ، والعنب ، والليمون ، والنارنج حلو وحامض[٥٤] ، والرمّان ، والخروب والتمر هندى ، والشمام[٥٥] .

ووجدت أيضًا زراعة بعض النباتات فى رشيد فنجد منها : الحنة و تستخدم فى الصباغة و تخضيب (تلوين) الأظافر بالنسبة للنساء ، وأوراقها بيضاء تنمو طبيعياً[٥٦]. ووجدت زراعة الخشخاش و القنّب وكانوا يستخدمون القنّب كمسحوق و يخلط مع العسل[٥٧] وتتم زراعته على حواف بعض الحقول بكميات ضئيلة و يصنع من أوراقه مخدر يقوم مقام الأفيون[٥٨]. وينمو أيضًا الريحان فى الحدائق و له رائحة جميلة ويستخدم فى الزينة[٥٩] .

كان هذا عن الزراعة بأنواعها فى رشيد ، أما عن الموازين و المكاييل و المقاييس فنجدها كالآتى:

كانت وحدة الأوزان هى الدرهم ، و كل أربعة و أربعين و مائة درهم تساوى رطلاً ، و كل أربعمائة درهم تساوى أقة ، وكل مائة رطل تساوى قنطار ، و الأقة تستخدم فى رشيد و دمياط و الإسكندرية[٦٠] أما عن المكاييل فنجد الأردب، و يختلف حجمه تبعًا للحبوب المكالة ، وكذلك المكان الذى تستخدم فيه عملية الكيل ، و فى سنة ١٦٦٥م قدر بـ ٧٥ لترًا ، و فى القرن الثامن عشر ضُعِفَت قيمته و أصبح يساوى ١٨٤ بوشل . وفى نهاية القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر كان الأردب ينقسم إلى أربعة وعشرين جزءًا وأحيانًا إلى ١٣٠ أقة ، والأقة تزن ٤٠٠ درهم[٦١] .

أما الأردب المستخدم فى كيل الأرز فليس على الإطلاق هو نفس أردب القاهرة ، بل إن أردب رشيد تبلغ نسبته إلى أردب القاهرة ماقيمته ٢:٣، ويحتوى أردب القاهرة على ٢٠ مكيالاً رومانيًا قديمًا، حجم كل منها كما هو معروف ١/٣ قدم مكعب. ووجدت وحدة وزن أخرى ذات أهمية كبيرة و هى القنطار وهو يزن من ١٠٠، ١١٠ ، ١٥٠ و أحياناً ٢٧٥ رطلاً حسب نوع المادة الموزونة التى يستخدم فى وزنها[٦٢] .

أما عن وحدة القياس الزراعى فعادةً ما تعرف باسم فدان ، و هو مربع يبلغ طول ضلعه ٢٠ قصبة ، و بذلك تبلغ مساحته ٤٠٠ قصبة مربعة ، و القصبة مقياس طولى يبلغ طوله ٦ ذراع بلدى فى المعاملات التى يمارسها الأفراد فيما بينهم[٦٣] .

وعن الثروة الحيوانية فى رشيد فهى جزء من مكونات الثروة الزراعية ، فيمكن الحكم بأن اهتمام الفلاح بهذا الجانب كان منصبًا على تربية الحيوانات التى تعينه فى عمله الزراعى ، أو التى تزوّده بقدر من المواد الغذائية كاللبن والزيد والجبن . والحيوان الذى حظى بالمكانة الأولى عند الفلاح هو «الجاموس» و بخاصة فى مدن مصر ، ومنها مدينة رشيد ، حيث استخدم لإدارة الآلات الزراعية[٦٤] كما اهتم الفلاح أيضاً بتربيته ليصنع من ألبانه الجبن و السمن ، أو يربونه بقصد الحصول على اللحوم التى تباع بكثرة عند جزارى الثغر[٦٥] . و قد ذكر سونينى «أن قطعان الجاموس والأغنام فى مصر يغلب عليها الشراسة و التوحش»[٦٦] ، أما جيرار فقد ذكر «أن قطعان الجاموس أقل شراسة كلما اتجهنا نحو الشمال و تستخدم فى إدارة ماكينات الرى» .

أما الحيوان الثانى المستخدم فى الزراعة «الأبقار» و تستخدم الإناث منها فى أعمال الزراعة و هى تعطى اللبن خلال الشهور الأربعة من بداية حملها ، لكنها تتوقف عن ذلك كليةً خلال الثمانية شهور الباقية، و تتغذى الأبقار و الجاموس على التبن والبرسيم الأخضر ، وباقى السنة على البرسيم الجاف[٦٧] .

وإلى جانب الأبقار اللازمة لزراعة الأراضى يمتلك المزارعون عادةً قطيعًا صغيرًا من الماعز والضأن و العجول ، وتوفر الماعز قدرًا من الألبان التى تستهلكها القرى ، وتتغذى خلال ثمانية أشهر من السنة على البرسيم الأخضر والجاف [٦٨] .

أما عن حيوانات النقل التى كان الفلاح يهتم بها و يولّيها عناية خاصة فهى «الجمال» و «الحمير» وكانت الجمال تستغل فى نقل الحاصلات [٦٩] ، وكانت تربيتها أهم ما تشتغل به القبائل العربية المستقرة فى مصر عامةً و فى رشيد بصفة خاصة[٧٠] .

والحيوان الثانى الذى كان يعتمد عليه الفلاح فى نقل محصولاته و تنقلاته هو «الحمار» و كانت الحمير أكثر دواب الحمل استعمالاً فى رشيد ، وقلما يوجد فلاح ليس لديه حمار يساعده فى عمله[٧١].

وإلى جانب حيوانات النقل هذه وجدت «الخيول» [٧٢] وكانت تُستخدم لركوب الأشخاص ذوى المكانة فى المجتمع الريفى[٧٣] ، وكان العربان المقيمون فى الصحارى هم الذين يقومون بتربية الخيول وترويضها وبيعها و كان هذا العمل أساس ثروتهم .

كذلك كان الفلاح يقوم بتربية الدجاج والحمام بكثرة ، و كان عائد هذه الدواجن عليه تافهًا ، لأنه فى كثير من الأحيان يربيها ليقدمها هدايا لرجال الإدارة و قت حلول الوجبة، و طلوع الديوان، و نزلة الكشاف على القرى[٧٤] .

وهكذا نجد من العرض السابق لجانبى الثروة الزراعية بشقيها أن الزراعة لعبت دوراً مهمًا فى مدينة رشيد فى حياة الفلاح خاصة و أنها مدينة زراعية، فكان الفلاح يكفى حاجته من المحصول الذى يزرعه و ينتجه ، و يدفع منه الضرائب و يصدّر جزءًا كبيرًا منه إلى القاهرة و باقى المدن المصرية، هذا بالإضافة إلى تصدير الحاصلات الزراعية للخارج . أيضًا كان يستخدم الحيوان فى عمله بالإضافة إلى حصوله على الغذاء و الصوف و الوبر الذى يستخدم فى صناعة الملابس .

أما عن الزراعة فى القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر إلى أن تولى محمد على حكم البلاد عام ١٨٠٥م فنجدها متأخرة ، إذ أن معظم الأراضى كانت تنتج محصولاً واحدًا فى السنة و هو من الحاصلات الشتوية ، أما الحاصلات الصيفية المكسبة فقليلة لصغر المساحات التى يمكن ريّها فى الصيف و ارتفاع تكاليف زراعتها ، كما أن معظم الحاصلات كانت للاستهلاك المحلى . ونظرًا لأن الأراضى الزراعية ليست ملكاً للفلاحين فقد دعاهم هذا إلى قلة الاهتمام بالزراعة حتى أصبحوا لا هَمّ لهم إلا إنتاج مايكفى فقط للغذاء و الملبس و دفع الضرائب ، فبذلك انخفض مستوى معيشتهم [٧٥] .

وأدى إهمال شئون الرَّى إلى الكساد الزراعى ، كما أن نظام نوبات رى الأراضى الذى كان متّبعاً له أثر سيئ فى نفوس المزارعين ، حيث قامت على أثره المنازعات بين الناس ، حتى وصلت إلى القتال فيما بينهم على موارد المياه، لدرجة أن بعضهم كان يتسلل خلسة ليلاً إلى الجسور لتحويل المياه إلى أراضيهم[٧٦] و مع كثرة الحرمان من

مياه الرى وزيادة الظلم والضرب ازداد سخط الأهالى لما يقع عليهم من قسوة ، مما أدى إلى هجرة بعضهم للأراضى الزراعية ، و على أثر ذلك أصبحت الأرض لا تفى بحاجة البلاد حتى زادت المجاعات [٧٧]، و عجز الفلاحون عن سد حاجتهم نتيجة لوقوع الكوارث الطبيعية ، فذكر الجبرتى أنه «لما انكشف الماء وزرع الناس البرسيم و نبت، أكلته الدودة ، و كذلك الغلّة فقلب اصحاب المقدرة الأرض وحرثوها وورووها بالماء من السواقى و النطالات والشواديف واشتروا لها التقاوى بأقصى القيم و زرعوها فأكله الدود أيضاً ، و لم ينزل من السماء قطرة ولا أندية ولا صقيع بل كان فى أوائل كيهك شاردات وأهوية حارة ثقيلة ، ولم يبق بالأرياف إلا القليل من الفلاحين ، وعمهم الموت والجلاء ، وكان ذلك فى محرم ١٢٠٧ هـ / ١٧٩٢ م» [٧٨] .

ثانياً - النشاط الحرفى و الصناعى

أ ـ تكوين الطوائف الحرفية :

أما عن النشاط الحرفى فى ثغر رشيد فنجد فيه انقسام المجتمع إلى هيئات طائفية ، كان منها العلماء، والتجّار ، والصنّاع ، وجميع الأفراد الذين تضمهم مهنة واحدة أو عمل واحد أو مذهب واحد، كانوا ينظمون أنفسهم فى شكل طائفة لرعاية مصالحهم الذاتية ، و النظر فى شئونهم [٧٩] .

وقد ضمّت الطوائف جميع فئات الشعب بلا استثناء أو تفرقة، فكان ينضم إليها المسلمون والمسيحيون واليهود ، وكان الرعايا يميلون إلى إظهار ولائهم لشيخ الطائفة أكثر من إظهاره إلى السلطة الحاكمة[٨٠] . كما تميزت الطوائف بقوانين تنظيمية خاصة، حددت العلاقة داخليًا بين أعضائها فيما بينهم ، وخارجيًا بينهم و بين السلطة الحاكمة . و كان لكل طائفة دستورها غير المكتوب من عادات وتقاليد موروثة[٨١] .

ويطلق على الطائفة الحرفية اسم «صنف أو حرفة» [٨٢] وقد أشارت إليها بعض المراجع الحديثة باسم «نقابات» [٨٣] وهو ما لا أقره ، ولكن الوثائق تطلق عليها اسم «الطوائف» [٨٤] وهو الاسم الصحيح لاستخدام لفظ الطوائف بالنسبة لتنظيم الحرف ويعنى لفظ «طائفة» أهل حرفة تربط بين أفرادها صلات اجتماعية وثيقة ، ووحدة

اقتصادية متميزة و يسودهم التضامن فى السرّاء و الضرّاء و يمارسون قدرًا من الحرية و لونًا من الحكم الذاتى فى نطاق مهنتهم أو حرفتهم [٨٥]

نشأة نظام الطوائف

ترجع نشأة نظام طوائف الحرف إلى ماقبل تأسيس السلطنة العثمانية بوقت طويل ، و يعتقد بعض الباحثين أن الطوائف ظهرت نتيجة بعض الحركات الثورية فى المجتمع الإسلامى مثل حركة القرامطة حيث ظهرت طوائف الحرف كهيئات معارضة للسلطة الحاكمة[٨٦]

كما عنى هؤلاء بإبراز وجوه الشبه بين مراتب الصنّاع داخل الطائفة و بين مراتب الصوفية ، و حللّوا مظاهر الاحتفالات التى تقام بمناسبة إلحاق الصبيان أو تعيين الرؤساء ، و ربطها ببعض طقوس الصوفية و احتفالاتهم[٨٧].

وقد ورثت مصر العمل بنظام طوائف الحرف منذ نشأته فى العصر الإسلامى ، وظهر هذا النظام بصورة واضحة فى العهد الأيوبى[٨٨] ، إذ انتظم أرباب الحرف فى طوائف خاصة بهم ، و استمر هذا النظام حتى مجىء العثمانيين ، بل استمر أيضًا فى العصر العثمانى وعصر محمد على باشا، و ذلك لأن سياسة الدولة العثمانية كانت ترمى إلى الإبقاء على النظم القائمة والابتعاد ما أمكن عن الحكم المباشر، وظل هذا النظام متّبعًا فى أوائل عهد محمد على إلى أن قام بتنظيم أحوال البلاد اقتصاديًا وأصبح هو المسيطر على كل شئ [٨٩] .

وقد لعبت الطوائف دورًا مهمًا فى تنظيم صفوف الصنّاع الحرفيين ودعمت قواهم ووحدتهم إذا قورنت بالتفكك الذى كان قرين حياة الفلاحين ، و لعل ذلك يفسر لنا محاولة جماعات من الفلاحين أحيانًا الانخراط فى بعض الطوائف كلما اشتدت بهم المظالم أو نزلت على حياتهم سياط الحكم[٩٠] .

ونتيجة لذلك كانت هذه الطوائف كثيرة العدد ، و كانت كثرتها تمنحها نوعًا من النفوذ فى الحياة السياسية ، فكان رؤساؤها يتمتعون بسلطة كبيرة ، و كان من حقهم الدخول على الباشا[٩١] .

تنظيمات طوائف الحرف

كانت الطائفة المهنية عنصرًا أساسيًا فى الحياة المدنية ، فقد كانت تمثل بالنسبة للسلطات إطارًا يمكّنها من الإشراف على معظم الشعب العامل بالمدينة من صنّاع وتجّار[٩٢] ، و كانت لكل طائفة حرفية مهما كان نوعها شيخ هو رئيس الطائفة وكبيرها ومديرها [٩٣]، وكان لمشايخ الطوائف الصناعية نوّاب ووكلاء يُعرفون بالنقباء ، يختارهم إما حكام المدن التى يقيمون بها و إما السُلطة العليا، إن رئيس الطائفة كان يُدعى الشيخ و له نائب أو وكيل أُطلِق عليه اسم النقيب[٩٤] .

أما عن منصب شيخ الطائفة فكان وراثيًا فى بعض الأسر ، بحيث يستمر فيها مادام مشتغلاً بالصناعة[٩٥] وكان يعاونه جاويش ، ويُنتخب الشيخ بالاتفاق ولم يحدث إطلاقًا أن انتُخِب حسب أغلبية الأصوات .

وفى حالة عدم اتفاق رؤساء المشايخ ، كان شيخ المشايخ يُعيّن أحد المرشحين ، وكان يلى الانتخاب احتفال لتأكيده يحلف فيه الشيخ يمينًا، كما أن أعضاء الحرفة كانوا يقومون أيضًا بانتخاب الجاويش وكان يقوم بدور مندوب الشيخ و مبعوثه ، و إن لم يكن له سلطة قانونية[٩٦] .

وقد اختص شيخ الطائفة بفض المنازعات بين أعضائها ، وإقرار النظام ومعاقبة المخالفين له[٩٧] وكانت من مهامه أيضاً أن يعقد اجتماعات أعضاء الحرفة ، ويحافظ على تماسك الهيئة ، ويجد عملاً لأرباب الحرفة[٩٨] ، ويُعيّن عليهم الرؤساء ، و يبحث مع السلطات كل المسائل المتعلقة بالحرفة ، و هو الذى يتولى توزيع الضرائب المفروضة على الأعضاء ، وكانت الحكومة تفرض ضرائب سنوية على طائفة بأكملها ، و يقوم الشيخ عادةً بإعادة توزيعها على الأعضاء كلٍ حسب موارده ، و من هذه الضرائب ما تم دفعه عن أصحاب الطوائف فى رشيد لسنة (١٠٥٣ هـ / ١٦٤٣م) ما يُقدَّر بـ ٣٠٠ كيس[٩٩] . و كان تعيين شيخ الطائفة الحرفية يتم على يد القاضى حيث يجرى تنصيب مشايخ طوائف الحرف وعزلهم ، و مثال ذلك ما ورد بسجلات محكمة رشيد الشرعية.

أيضًا كان تعيين شيخ الطائفة الحرفية يتم على يد القاضى بناء على رضا أبناء الطائفة به [١٠٠]. و بعد إثبات تنصيب شيخ الطائفة أمام القاضى كان يعلن ذلك فى

الأسواق «يجهز النداء بذلك فى الأسواق»[١٠١] . و قد أمدتنا وثائق المحاكم الشرعية بأمثلة كثيرة عن تعيين مشايخ الطوائف، فنجد منها على سبيل المثال لا الحصر تعيين كل من الشيخ «شهاب الدين شيخًا و متحدثًا على جماعة النيارجة و السماسمية بالثغر»[١٠٢]. «والشيخ عبد الحميد بن سالم شيخًا ومتحدثًا عن طائفة الكيالين والسماسرة بسوق الأرز بثغر رشيد»[١٠٣] «والشيخ حسن بن الحاج علي شيخًا ومتحدثًا على جماعة السوقة المتسببين بالثغر فى الفاكهة من قصب وبطيخ وتين»[١٠٤] «والشيخ عبد الكريم شيخاً ومتكلماً على جماعة المتسببين فى الجلود الجاموسى والبقرى بالثغر»[١٠٥] «والشيخ إبراهيم الدباغ شيخًا ومتكلمًا عن طائفة المدابغية» [١٠٦] .

ومن أهم الشروط الواجب توافرها فى شيخ الطائفة وجود الأهلية والدراية والاستقامة ، وسجلات المحاكم الشرعية حافلة بالحجج التى توضح هذه الشروط .

أيضًا يُشترط أن يكون شيخ الطائفة أكبر أفرادها سنًا، ومُلمًا بدقائق الحرفة التى يمارسها ، وعليه تنظيمها، وحسم النزاع بين أفرادها، ومنع الغش، وتقدير الثمن العدل وما إلى ذلك[١٠٧] .كما يقوم شيخ الطائفة بدفع ما هو مفروض على جميع أعضاء طائفته من أتاوة أو فِردة على الرأس ، أما الأعضاء فليسوا مسئولين شخصيًا أمام الحكومة ، كما أنهم بمأمن من أعمال الابتزاز التى يقوم بها ممثلو السلطة [١٠٨] . كما كان من الممكن أن يتنازل الشيخ عن منصبه لآخر، و يتم إثبات ذلك فى سجلات المحاكم الشرعية[١٠٩] . و يختص كل شيخ بحرفة معّينة يتولى رئاستها ، ففى بعض الحالات كان الشيخ يرأس شيوخ حرف متعددة بينها ارتباط معين .

وفى داخل كل طائفة وجدت طوائف متخصصة ، ففى داخل طائفة التجار نجد طائفة تجار الزيت وتجار الصابون ، وتجار المجوهرات «الصاغة» ، وتجار السلاح ، وتجار البن والقماش وغيرها من الطوائف[١١٠] . وكان النقباء وهم نواب أو وكلاء المشايخ يحضرون مع الشيخ كل الاجتماعات الرسمية التى تتم فى المحكمة الشرعية والخاصة بتقرير اختصاصات الشيخ أو سلطاته الخاصة بوضع سعر خاص للسلع[١١١]. وكان لشيخ كل طائفة عوائد على أهل طائفته حيث يلتزم بسداد ما على طائفته من

ضرائب وأعباء رسمية وغير رسمية عينية ونقدية لملتزم الجهة التى تتبعها مقاطعته مالياً، وله الفرق بين ما يُجبى وما يُدفع. على أنه تجب الإشارة إلى أن قاعدة الربح لم تكن هدفاً لهؤلاء الشيوخ كسائر الملتزمين . و تُحصّل هذه العوائد من أفراد الطائفة كلٍ على حسب قدرته وحجم نشاطه ، و لكن فى إطار معين متفق عليه بين شيخ كل طائفة و كبارها حين اختياره ، و يُعتبر خروج الشيخ عنه بالزيادة مبررًا يستوجب عزله من مشيخته، ويتعهد مشايخ الطوائف التى تخضع لإشراف معمارجى باشا وجبجى باشا بسداد عوائد إليهم كمشرفين عامين على تلك الطوائف التابعة لهم والخاضعة لسلطتهم، وذلك نظير تفويض المشايخ فى إدخال ما يريدون إلى الطائفة وما يتقاضونه من عوائد من أفراد طوائفهم(١١٢) .

وإذا أراد شخص أن يلتحق بطائفة حرفية معيّنة أن يبدأ عمله كصبى لممارسة تلك الحرفة ، حتى إذا ما ثبت كفاءته انتظم فى سلك الطائفة كعضو عامل بها . ويبدأ السلم الوظيفى فى الحرفة الصناعية من القاعدة بالصبى وينتهى فى القمة بالشيخ الرئيسى ، وفى الوسط يقف الأسطوات أو المعلمون والعرّيف و العمّال(١١٣) .

أ . الصبى

يمثل الصبى المرتبة الدنيا فى الطائفة ، وهو يعمل لدى أحد الرؤساء «الأسطوات» لبضع سنين يتعلم خلالها أسرار الحرفة وتقاليدها (١١٤) ، ويعيش الصبى عند المعلم وعليه لزوم الطاعة والاحترام (١١٥) وعلى المعلم أن يعلمه أصول حرفته ودقائقها ، ويمكث الصبى عند المعلم حوالى سبع سنوات حسب استعداده الفطرى(١١٦) وبعد ذلك يُصبح عاملاً يستطيع أن يشتغل مقابل أجر يومى أو شهرى زهيد، والأسطى أو المعلم هو الذى يشهد للصبى بتقدمه وتفوقه، وبأنه أصبح أهلاً للترقية (١١٧) ومن الملاحظ أنه لم يكن يُسمح للصبى بترك معلمه إلا بعد الحصول على موافقة شيخ الحرفة ، وإلا كان من العسير عليه الحصول على عمل مناسب ، ومع ذلك فلم يكن ترك المعلم إلى سواه أمرًا صعب المنال .

يقول المعلم للشيخ إن صبيّه قد تعلّم الصنعة و أحكمها، وأنه يرغب فى أن يصير معلّمًا وأن يمارسها فى مصنع خاص به ، فيدنى الشيخ الصبى منه ويحزمه بحزام خاص عنده، وينادى به عضواً من أعضاء الطائفة (١١٨) وكان قبول العضو الجديد بإحدى الطوائف الحرفية يتم على مراحل تبدأ كل مرحلة بحفلة معيّنة .

حفل الالتحاق

عند انضمام الطفل إلى الطائفة ليصبح صبيًا لدى الأسطى ، يقيم حفلاً و يبدأ عادةً الحفل بقراءة الفاتحة، وبذلك يكون قد مرّ بأولى مراحل الالتحاق بالطائفة(١١٩). كما يليه حفل آخر بعد فترة زمنية معيّنة يسمى حفل العهد، وفيه يُلقى الأسطى بأسئلة ويجيب الصبى عنها تدور حول ما تعلمه من أصول الحرفة، ثم يلقى عليه بعض النصائح التى تساعده فى حرفته ثم يتلو عليه القسم ، و ينتهى الحفل بتلاوة القرآن القريم و الصلاة على النبى ﷺ (١٢٠). وفى نهاية مرحلة التعلّم يُقام حفل يسمى حفل الشد و ذلك عندما يبلغ الصبى حدًا من الكفاءة و يجرى عادةً فى منزل والد الصبى الذى يريد الانخراط فى سلك الطائفة (١٢١) ، ويدخل الصبى فى سياج الطائفة حيث يمر بحفل الشد ، الذى يُحزم فيه بحزام الطائفة على يد النقيب بحضور الشيخ ، وبهذا الحفل يقوم المعلم الكبير بإظهار تلميذه أمام شيخ الطائفة مبّينًا مدى مهارته فى إتقان الصنعة ، ثم يقوم الصبى بعقد حلقات مع زملائه لتصفية ما قد يكون بينه وبين زملائه من منازعات ، و بعد ذلك يعقد اجتماع كبير للطائفة تولّم فيه وليمة ، ويتم افتتاح الحفل بأن يقوم كل عضو بقراءة الفاتحة ويهدى كل منه إلى الشيخ عودًا أخضر، ثم يقوم الصبى بمناشدة الحشد أن يطلبوا من الشيخ الكبير أن يستجيب له، ويُلحقه بحمايته و يقبله عضوًا بالطائفة .

وإذا اعترض أحد الحاضرين، كان على الصبى مصالحته ، وبعد ذلك يقوم الصبى فيتوضأ و يصلى، ثم يعقد فى حزامه أربع عقد : واحدة لكبيره هو، وواحدة لكبير الكبير (الجد)، وثالثة للطائفة، والرابعة لإمام العلوم على بن أبى طالب، ثم ينصح الحاضرون المشد بأن يكون عفيفاً خيّرًا، ولا يُقدم على فعل ما يُغضب الله ، وأن

يتمسك بالشريعة ، و كان هذا الحفل يكلف الصبى مصاريف باهظة خلاف الهدايا التى كان يقدمها إلى النقيب و كبير الأسطوات الحاضرين و هى عبارة عن أقمشة صابون وهدايا أخرى [١٢٢] .

ب ـ العرّيف

يقوم بالعمل عند المعلم و ذلك نظير إيوائه واستخدامه ، والعريف هو مرتبة وسط بين الصبيان والرؤساء ، تتيح له نصيبًا كبيرًا من العائد وتيسر له إطلاعًا أوسع على أسرار الحرفة وفنونها وتقاليدها[١٢٣] . ويجوز للمعلم أن يستخدم لديه اثنين أو ثلاثة من العرفاء ، والمدة التى يمكثها عند المعلم من سنتين إلى خمس سنوات ، ولا يجوز للعرّيف أن يترك معلمه دون انقضاء المدة المذكورة والمعلم نفسه لا يجوز أن يترك العريف لأى سبب[١٢٤] . و إذا أراد العريف أن يرتقى إلى معلم لا بد له أن يتفنن ويتقن عملاً يوافق عليه المعلمون والشيخ ، ويرشحه رئيسه لهذه المرتبة ويحصل له على تصريح من شيخ الطائفة بفتح محل مستقل له يستخدم فيه ما يحتاجه من عرفاء وصبيان[١٢٥] ، وكان يعقد احتفالاً يقتصر على أن يعد المرشح بمراعاة الطرق التقليدية التى جرت عليها الحرفة [١٢٦] .

جـ ـ المعلم أو الأسطى

المعلم يلى العرّيف ، ولابد أن يكون مُلِّماً بدقائق الحرفة ، و ينتخب المعلمون من بينهم شيخ الحرفة أو شيخ الطائفة ، و يقوم بعمله فى مصنعه الصغير و يلحق به عددًا من الصبيان لتعلم الحرفة والوقوف على أسرارها[١٢٧] وإذا أراد الصبى أن يترك معلمه فإنه لا يستطيع الالتحاق بأى مصنع آخر إلا بعد الرجوع إلى شيخ الطائفة ، و إذا كان الانفصال بسبب مشاجرة بين الصبى ومعلمه ، تدخل الشيخ فى الخلاف و كثيرًا ما يؤدى تدخله إلى إزالة الخلاف بينهما ، ورجوع الصبى إلى العمل ، وإذا كان الانفصال بسبب مصلحة مالية دخل الصبى فى خدمة معلم آخر بموافقة الشيخ وواسطته[١٢٨]

ولكى يحصل الصانع على ترخيص بمزاولة تعلُّمه الحرفة و يصبح بذلك أسطى يقام له حفل الإذن ثم حفل شد آخر يترقى بعدهما فى مراتب الطائفة ، وهى مرتبة «البيشرويش» ، ثم مرتبة النقيب الثانى، ثم مرحلة النقيب الكبير ، وأخيراً مرتبة

الشيخ[١٢٩] . والمعلمون والأسطوات فقط هم الذين يسمح لهم بفتح حوانيت أو مصانع صغيرة ، ويُصرَّح لكل طائفة بعدد محدود من المصانع أو الحوانيت . والامتياز الذى يخوِّل لصاحبه الحق فى افتتاح حانوت والذى كان يمنحه الحق فى ممارسة أى حرفة صناعية أو تجارية ، هو ماكان يسمى بالتركية «بالكدك» و الكدك نوع من الملكية يستطيع الأسطى أو المالك فى أى مهنة أن يرهنه أو يبيعه أو يتنازل عنه لمشترٍ مناسب ، وفى معظم الحالات لم يكن الحانوت أو المصنع ملكًا للأسطى ، بل كان يدفع إيجارًا سنويًا له[١٣٠] .

أما عن النساء فلم يظهر أثر لهن فى تنظيمات طوائف الحرف ، فلم نعثر على ذكر لهن فى الحفلات الطائفية، ولا فى تنظيم الطوائف، و لم نجد طوائف للنساء سوى المواشط والمولدات والغوازى ومرجع ذلك إلى أن المرأة لم تكن لها الحرية الكافية فى ممارسة المهن [١٣١].

وقد شارك الذِّميون – من مسيحيين ويهود ـ المسلمين فى ممارسة المهن المختلفة برشيد ، و كانت لهم طوائف خاصة بهم[١٣٢] وقد مارس اليهود أنشطة متنوعة مثل أشغال المعادن الثمينة ، وأعمال الصرافة وهى مهنتهم التقليدية[١٣٣] .

أما عن الإفرنج فقد ساهموا فى النشاط المهنى و الحرفى بقدر محدود مقارنةً بنشاطهم التجارى وتركز نشاطهم المهنى فى مجال الطب [١٣٤]، وصياغة الذهب والفضة ، وطلاء المعادن، والصرافة والخياطة، والخبازة، وغيرها من المهن غير التجارية، وتميّزت كل جالية فى مجال حرف و مهن معيّنة عن الجاليات الأخرى[١٣٥].

كما تميزت حياة طوائف الحرف فى رشيد بظاهرة مهمة هى الارتباط بينها وبين الجند؛ وذلك نتيجة لتسلل أفراد الأوجاقات العسكرية إلى طوائف الحرف، وأدى ذلك لتحكمهم فى بعض الطوائف واحتكار بعضها الآخر خاصة فى القرن الثامن عشر ، وقد أوضحت ذلك إحدى سجلات محكمة الإسكندرية، وكان عقاب المخالفين من أعضاء الطوائف من أفراد الأوجاقات معقداً إلى حد كبير بسبب تسجيل عدد كبير منهم فى فرقة الإنكشارية ، فهناك قانون قديم كان ينص على عدم معاقبة الإنكشارية إلا على أيدى ضباطهم ، و كان هذا القانون لا يزال سارياً رغم أن رجال الطوائف من

الإنكشارية لم يكونوا جنودًا إلا اسمًا فقط [١٣٦] . وقد كان تسلل الجند إلى طوائف الحرف فى معظم الأحيان على غير رضا من أهلها و باستخدام القوة ، وكان الإنكشارية يتقاضون رسم حماية من بعض الطوائف نظير حمايتها من السلطة [١٣٧] .

ولقد زاد تغلغل الجند فى حياة أرباب الحرف حتى لقد تولى بعضهم رئاسة بعض الحرف و نشر الفوضى فيها ، و قد أدت فتن الجند المتكررة فى نهاية القرن الثامن عشر واعتداءاتهم على أرباب الحرف إلى أن اضطر هؤلاء إلى حمل أسلحتهم معهم إلى حوانيتهم للدفاع عن أنفسهم ضد أولئك المعتدين [١٣٨]

الارتباط بين طوائف الحرف و الطرق الصوفية

لقد شاع التصوّف ، وانتشر بين المصريين فى العصر العثمانى ، و لعل ذلك راجع إلى رغبة الناس فى الهروب من واقع الحياة التى خيّم عليها الفقر والظلم والاستبداد إلى التصوّف للاستعانة به على احتمال تلك الحياة[١٣٩]. وقوى الارتباط بين طوائف الحرف والطرق الصوفية فى مصر العثمانية، فكل طائفة كانت تتخذ إحدى الشخصيات الصوفية الكبرى كراعٍ لها[١٤٠] .

وكان الارتباط وثيقًا بين الدراويش وطوائف الحرف ، وكانت الطرق الصوفية تستمد أساس أعضائها من طبقة الصنّاع والتجّار ، وكان معظم دراويش مصر فى ذلك العصر من التجّار أو الصنّاع أو المزارعين [١٤١] .

ومن أشهر طوائف الدراويش فى مصر ، طائفة الرفاعية نسبةً إلى أحمد الرفاعى مؤسسها، ومن فرقها السعدية نسبةً لمؤسسها الشيخ سعد الدين الجباوى[١٤٢] وهى من أشهر الطرق الصوفية فى رشيد[١٤٣]، وطائفة القادرية أسسها عبد القادر الجيلانى، وطائفة الأحمدية وهم طائفة السيد أحمد البدوى وهى طائفة كثيرة العدد، منها: البيومية ومؤسسها السيد على بيومى، والشعراوية ومؤسسها الشيخ الشعرانى، والشناوية ومؤسسها السيد على الشناوى . وطائفة البراهمة أو البرهمية وهم طائفة السيد إبراهيم الدسوقى ومن أشهر فرقها، الحفناوية والعفيفية والدمرداشية والنقشبندية والبكرية والليثية .

أما أشهر طرق الدراويش الموجودة فى رشيد فهى طائفة الرفاعية التى من فرقها السعدية، ويوجد فى هذه الطائفة دراويش يمسكون الثعابين السامة والعقارب بلا خوف، ويلتهمون بعضها بعد نزع أنيابها لتأمين شرها(١٤٤) .

وحملت الصلة بين الأسطى وصبيّه شبهًا تامًا من الصلة بين الدرويش ومريده ، ومن هنا انبثقت عاطفة قوية بين أعضاء كل طائفة حرفية ، وبهذا الانتساب الدينى من طوائف الحرف إلى الطرق الصوفية، أصبحت الطوائف قائمة على أسس أخلاقية ودينية ، مما سهّل لها أن تفرض على أعضائها الشعور بالواجب تجاه صنعتهم .

وتظهر المظاهر الدينية فى طوائف الحرف فى القرن الثامن عشر فى طقوس الحفلات التى كانت الطوائف تقيمها بمناسبة قبول أحد الأعضاء الجدد بها كصبى أولاً ثم الاحتفال بترقيته إلى أسطى أو معلم ، ومن أهم المظاهر الدينية ترتيل الأدعية وقراءة القرآن .

وبالنسبة للأعضاء الذمّيين كانت عاداتهم تراعى فى حفل الشد وحفل الإجازة ، فعند إدخال المرشح الذمى فى حفل الشد كانت الصلاة الربانية تستخدم بدلاً من الدعوات الإسلامية وكانت العادة أن يتخذ الأعضاء غير المسلمين فى الطوائف المشتركة أساتذة أو معلمين لهم من المسلمين(١٤٥)و كانت الطوائف تشارك فى الاحتفالات الدينية مثل رؤية هلال شهر رمضان ممثلة بشعارتها و أعلامها(١٤٦)

مزايا نظام الحرف ومساوئه

لقد أدى تعدد طوائف الحرف فى مصر العثمانية و التنظيم الدقيق لها إلى عِظم نفوذ طوائف الحرف إذ ذاك، فكان لها دور كبير فى الحياة السياسية، و كان لشيوخها الحق فى الدخول إلى الباشا وكبار العلماء وكبار الحكّام لعرض مطالبهم . و من أهم مزايا نظام الطوائف ما يلى :

أولا - كان من أهم العوامل لإشاعة حياة اجتماعية زاخرة بألوان النشاط ، مما أدى إلى توثيق الصلات الاجتماعية بين الناس، وتضامنهم فى السرّاء و الضرّاء(١٤٧) .

ثانيًا - ساعدت السلطات الحكومية على حفظ الأمن و النظام فى المدن و سهلت الاتصال بينها وبين الطوائف عن طريق شيوخها الذين كانت بواسطتهم تستدعى أى فرد من أفراد الطائفة لأى سبب من الأسباب وتُحصّل بواسطتهم أيضاً الضرائب المفروضة على أهل الطائفة الواحدة(١٤٨)

ثالثًا - اكتسبت أغلبية الطوائف روحًا دينية عالية ، إذ كانت معظم الطوائف تنتمى إلى جماعة دينية وكانت هذه من الدراويش أصحاب الطرق الصوفية (١٤٩)

رابعًا - أخرج هذا النظام الأفراد الذين لا يستطيعون مواصلة العمل فى الحرفة؛ ولذلك نجد أنه يخدم الصناعة بطرد الدخلاء عليها أو الذين ليس لديهم استعداد شخصى لتعلُّم أصول وفن المهنة ودقائقها . وقد يبدو أن هذا النظام مقيِّد للحرية، و لكنه كان مفيداً للصناعة فى ذلك الوقت لأنها كانت صناعة يدوية، وتتطلب شيئًا من المهارة و الدقة (١٥٠)

خامسًا- أوجد فى المجتمع منظمات كاملة ومعدَّة للحركة عند اللزوم، لها قيادتها وقواعدها، كما أوجد نوعًا من الارتباط والتعاون الوثيق لدرجة أنهم كانوا يشعرون بأنهم أسرة واحدة .

سادسًا- حفظ نظام الطوائف مستوى الحرف ، فقد كانت كل طائفة تحرص على أن يكون إنتاجها والمواد التى تستخدمها فى أحسن مستوى حددته لنفسها(١٥١)

أما مساوئه فأهمها :

أولاً - أدّى إلى تمزيق المجتمع إلى مجتمعات صغيرة مغلقة و منعزلة بعضها عن بعض .

ثانيًا - أتاح الفرصة لظهور طوائف خارجة على القانون وعلى مبادئ الأخلاق، مثل: طائفة اللصوص وقُطّاع الطرق ، وطائفة العاهرات وكانت هذه الطوائف معترفًا بها من الدولة(١٥٢) .

ثالثًا - أدى تدخل الأتراك العثمانيين فى نظام الحرف إلى تحولها عن الغرض الذى من أجله أُنشئت، فبعد أن كان هذا النظام يعمل على الرقى بالصناعة وفنونها والمحافظة على مصالح الحرفيين، تحول إلى إدارة يتحكم بها فى الصنّاع وإرادتهم طبقًا لرغبات و طلبات الحكومة (١٥٣).

رابعًا- وقف نظام انغلاق كل طائفة على نفسها حائلاً دون التقدم والابتكار ، فقد كانت الحـرف حينذاك شبه احتكارية فى أسرة معينـة، وتقوم على تقاليد يتوارثها الخلف عن السلف، وكان من المعتاد أن يتبع الابن أباه فى عمله والبنت غالبًا ما كانت تتزوج من نفس الجماعة المهنية لأسرتها . وقد احتفظت أسر معينة بأسرار الصناعات الدقيقة والهامة ، ولعل هذا مما سهلّ للسلطان سليم الأول نقل مايقرب من خمسين صنعة لاستانبول[١٥٤] وذلك بنقل الصنّـاع المحتكرين لأسرارها طبقاً للنظام الوراثى فى الحرف، مما أدى إلى افتقار مصر للكثيـر من صناعتها الدقيقة[١٥٥]

خامساً- أصبحت وظيفة شيخ الحرفة مع مرور الأيام لمن يشتريها بثمن أحسن ، و بعد أن كان شيخ الحرفةُ مٌلماً بأصول الحرفة أصبح كل هّمه جمع الكثير من الأموال والعمل على إرضاء رجال الحكومة وجمع المال لهم، وأصبح هذا النظام يشبه نظام الالتزام فى الزراعة ؛ وكان لهذا أثره السيئ على الحرفيين، والصناعة معًا [١٥٦]

سادساً: كان لانحلال نظام الأوجاقات وانخراط أفراد الحامية من الإنكشارية والعزب فى طوائف أصحاب الحرف أسوأ الأثر على نظام الطوائف ، فقد أدى ذلك إلى دخول الروح العسكرية فى طوائف الحرف[١٥٧] .

من هنا بدا واضحاً أن نظام الطوائف فَقَدَ ما كان له من تقدير ، وبصفة عامة فقد كان للطوائف رابطة إدارية من تلك الروابط القليلة التى أتيح لها أن تقوم بدور بين السلطات و بين الرعية ، وقد ظلت تلعب هذا الدور الهام [١٥٨] .

ومنـذ عـام ١٨٠٥م وبعد أن تولى محمد على زمام الأمور فى البلاد، طرأت تغييرات مهمة على الحياة الحرفية، حيث أصبح الحرفيون قسمين: قسم يعمل فى ورش الحكومة ومصانعها وخاضع للادارة مباشرة، وقسم لا يعمل طرفها، ويعمل حرًا وإذا كان محمد على قد أشرف على القسم الأول إشرافاً مباشراً، فقد كان القسم الآخر تحت عينيه، وبذلك أشرف عليهما (الكل) مباشر وغير مباشر واستمر هذا الوضع على ما هو عليه حتى فى عهد خلفائه من بعده [١٥٩] .

ومن أشهر الحرف فى مدينة رشيد : حرفة صيد السمك [١٦٠]، وحرفة الحدّادون والنحّاسون [١٦١] والخرّاطون[١٦٢] والنجّارون [١٦٣] والسقّاءون[١٦٤] وبائعو العرقسوس والشربات [١٦٥]، والجزّارون[١٦٦] والحلاّقون[١٦٧] والصيّاغ [١٦٨] والخيّاطون[١٦٩] والمكّارون[١٧٠] .

بالإضافة إلى الحرف التى ذُكِرَت، فقد وُجِدت بعض الحرف والمهن الأخرى فى ثغر رشيد، مثل: حرفة الصرماتية والسروجية[١٧١] ، والبنّائين[١٧٢] ، والفرّانين[١٧٣] ، والزيّاتين[١٧٤] ، وبائعى الخضر[١٧٥]، والصبّاغين[١٧٦] ، والفكهانية[١٧٧] ، والعطّارين[١٧٨]، والكيّالين[١٧٩] ، والحلوانية[١٨٠] ، والدخاخنية[١٨١] والفرارجية[١٨٢] ، والعلاّفين[١٨٣] ، والدبّاغين[١٨٤] ، والطبّاخين فى السكر[١٨٥] ، والحمّامية[١٨٦]، والبوابجية[١٨٧] ، هذا بالإضافة لبعض الحرف الأخرى التى عُرِفَت باسم الحرف الدنيئة وهى حرف : اللصوص ، والعرّافة ، والمهرِّجين ، والقرداتية ، والرقص الشعبى و الغوازى ، والمواشط ، والمتسوّلين ، والندّابات ، و المنجّمين ، والرمّالة[١٨٨]

ومن الملاحظ أن المهن والحرف التى سبق ذكرها سواء أكانت مهن دنيئة أم غير دنيئة كان لها ملتزم يشرف عليها ويحصِّل منها الضرائب، ولكل ملتزم منطقة خاصة به يحصِّل منها الضرائب ، ولا يجوز لأحد التعدى على منطقته . كما نجد أن بعض المهن مثل الخبّازين و الجزّارين ، وبائعى الزيت والسمك والسردين ، والخضروات ، والشمع ، وبائعى اللبن، كانت تتبع المحتسب وكان المحتسب يقوم أيضاً بجمع الضرائب على المهن الدنيئة ، ثم أسنِدَت بعد ذلك إلى أمين الخردة ليشرف عليها بالإضافة إلى مهامه الخاصة بجمع الضرائب على الغوازى ، و الحشّاشين ، و الطبّالين وبائعى الفول النابت والقُلل ، والحلوانية ، وقلاّئى السمك ، وعلى كل حال كانت الضرائب تُجَبى بانتظام على جميع الحرف و المهن[١٨٩] .

ومن هذا يتضح أن نظام الطوائف كان يمثل كيانًا اجتماعيًا له عاداته و حكمه فى السيطرة على تقاليد المهنة ، كما كان له دور مهم فى الصناعة فى رشيد، ومرجع ذلك لشيخ الطائفة و تمكُّنه من حرفته .

أما عن أهم الصناعات فنجد مايلى :

كانت الصناعة بدائية تعتمد على عدد قليل من العمال لتزويد السكان بما يحتاجون إليه من غذاء وكساء و أدوات منزلية ، وكانت تعتمد الصناعة فى المقام الأول على القوة العضلية والدواب(١٩٠)

وقد تمثلت الصناعات فى رشيد فى العصر العثمانى فيما يلى :

صناعة السفن (١٩١)، صناعة تمليح السمك(١٩٢)، صناعة ضرب الأرز وتبيضه(١٩٣)، وصناعة الزيوت(١٩٤) ، وصناعة الأقمشة(١٩٥) ، وصناعة الأوانى الفخارية(١٩٦)، وصناعة مواد البناء(١٩٧).

وكان لموقع مدينة رشيد على البحر المتوسط امتياز خاص كفل لها سهولة الاتصال بالدولة العثمانية وأصبحت مركزًا لصناعة المواد الغذائية المرسلة إلى الجيوش العثمانية و خاصة الخبز الجاف الذى يظل صالحًا للاستعمال مدة طويلة ، و قد عرفته الوثائق باسم (البكسماط)(١٩٨) وله طائفة عُرِفَت باسم البكسماطية(١٩٩) ، وانتشرت صناعته فى رشيد اعتمادًا على ما يرسل إلى أفراد الطائفة العاملة فى هذه الصناعة و هى طائفة الطحّانين و البكسماطية ، من القمح المصرى الوارد إليها من القاهرة أو الشام أو القمح المزروع بثغر رشيد(٢٠٠) ، وبعد تصنيعه يُعاد إرساله إلى الجيوش العثمانية فى شتى نواحى الدولة العثمانية . أيضاً كان يتم تصنيع البكسماط لحساب التجار حيث كان يجد فى بلاد الشام سوقًا رائجة(٢٠١) .

كذلك يوجد بعض الصناعات الأخرى مثل صناعة الحدادة والخراطة و النجارة وتركيب الأحجار الكريمة، وهى صناعات فى مجمعها مرتبطة بحاجة الاستهلاك المحلى(٢٠٢) .

هذه هى أهم الصناعات التى كانت موجودة برشيد فى العصر العثمانى ، وكان معظمها للاستهلاك المحلى، ومن الملاحظ أن طرق الإنتاج كانت بدائية إلى أبعد الحدود ، و الآلات التى كانت تُستَعمل فى إنتاجها تعتمد على قش الأرز و الذرة ، و روث

الماشية ، ومعظمها كان يعتمد على قوة عضلات الإنسان، واستعمال الحيوانات فى إدارتها ، وكان إنتاج هذه الصناعات يستغرق وقتًا طويلاً لا يتناسب مع كمية الإنتاج . ومن الملاحظ أيضًا أن إنتاج هذه السلع كان يتم حسب الطلب ، و كان العملاء فى أغلب الأحيان يزوّدون الصنّاع بالمواد الأوّلية لإنتاج السلع المطلوبة ، وقد أدى هذا إلى استغلال بعض التجّار للصنّاع عن طريق تشغيلهم .

وبنظرة عامة إلى حالة الصناعة فى رشيد بخاصة ومصر بعامة فى العصر العثمانى يبدو واضحًا تدهور الصناعة خاصة فى أواخر القرن الثامن عشر وذلك لعدة أسباب، هى :

أولاً . أن السلطان سليم الأول اصطحب معه عقب فتحه مصر عددًا كبيرًا من الصنّاع المصريين المهرة إلى الآستانة، الأمر الذى أبطل فى مصر . كما قال ابن إياس . «خمسين صنعة وتعطّل منها أصحابها» (٢٠٣) .

ثانيًا . خضوع الصناعة فى مصر لنظام الطوائف و تركز كل صناعة منها فى أسرة معينة ، فلما انقرضت بعض هذه الأسر انقرضت معها صناعتها المتوارثة .

ثالثًا . منافسة الصناعات الأوروبية الراقية للصناعات المصرية المتخلفة ، وعجز الصناعات الأخيرة عن الصمود أمامها(٢٠٤) .

رابعًا . عدم توافر رؤوس الأموال لتمويل الصناعات المختلفة ، بسبب الفقر المدقع الذى عاشت فيه البلاد فترة طويلة من الزمن(٢٠٥) .

خامسًا . إثقال كاهل الصنّاع و أصحاب الحرف المختلفة بالضرائب .

سادسًا . تحوّل طريق التجارة بين الشرق و الغرب عن البحر الأحمر و مصر إلى طريق رأس الرجاء الصالح فانعدمت الصلة أو كادت بين مصر وأوروبا ، و لم تعد مصر تتأثر بالتقدم الصناعى والحركات الصناعية فى أوروبا .

سابعًا . عدم توافر المقومات الأساسية للصناعة مثل الحديد والفحم، كما كانت مفتقرة إلى العمال الفنيين وإلى القوى المحركة الرخيصة .

ثامنًا . اختلال الأمن ، فاستتباب الأمن ضرورى لتقدم الصناعة ، ولكن مصر فى أواخر القرن كان الأمن فيها مضطربًا كما سبق أن أشرت من قبل .

أيضًا الصناعة تحتاج إلى أسواق لتصريف منتجاتها ، وفى أواخر القرن الثامن عشر كانت الأسوق المصرية تعيبها قلة الاستهلاك بسبب ضعف القوة الشرائية بين معظم السكان ، واضمحلال الجيش والأسطول وهما من أكبر المستهلكين للصناعات الأهلية وبخاصة الحربية منها[٢٠٦] .

واستمر العمل بنظام الصناعة حتى تولى محمد على الحكم، أتخذت الصناعة نظامًا جديدًا ، اصطلح على تسميته نظام الاحتكار ، وتمشيًا مع ذلك النظام الذى امتدت يد محمد على إليه فى الصناعة [٢٠٧] .

جـ المنشآت الصناعية

لعبت مدينة رشيد دوراً فى تطور الصناعة فى العصر العثمانى ، وأُنشئَت بها الأبنية الصناعية كالأفران[٢٠٨] ، ودوائر الأرز[٢٠٩] ، والطواحين[٢١٠] ، والسيارج[٢١١] ، ومعاصر الزيت[٢١٢] ، معامل تفريخ البيض[٢١٣].

ثالثًا - التجارة و أنواعها و المنشآت التجارية

عرف ميناء رشيد فى العصر العثمانى نوعين من النشاط التجارى ، فهناك التجارة الداخلية والتجارة الخارجية ، وتعتبر التجارة ركنًا مهمًا من أركان الاقتصاد المصرى ، والتجارة تعنى مبادلة السلع ونقلها من يد إلى أخرى بقصد الربح ، واستقرار موازين القيم ، كما تشمل التجارة مجهودات الإنسان فى تحويل المواد الأولية إلى مصنوعات لتلائم حالة المستهلك .

وأصبحت رشيد فى العصر العثمانى مركزًا هامًا للتجارة البحرية مع استانبول وبلاد الدولة العثمانية الواقعة على بحر إيجه ، وأصبحت أقرب الثغور إلى عاصمة الدولة العثمانية[٢١٤] ، كما صارت مركزًا لتجميع البضائع المنقولة إليها بواسطة النيل ، ومستودعًا لتجارة أوروبا مع مدينة دمياط[٢١٥] وكان ميناؤها واسطة بين القاهرة والإسكندرية ، حيث كانت البضائع تُشَحن إلى ميناء بولاق ثم إلى الإسكندرية عن طريق رشيد ، وهناك يتم تحميلها على مراكب و سفن أعالى البحار ، كما كان ميناؤها يستقبل السفن الضخمة[٢١٦] . ولعبت مدينة رشيد دورًا هامًا فى التجارة الخارجية فى

العصر العثمانى فكانت تأتى إليها البضائع من فرنسا وألمانيا ، والبندقية ، والدولة العثمانية وسوريا ، والمغرب[٢١٧] أما التجارة الداخلية والتى كانت تنحصر فى تبادل البضائع والحاصلات بين مدينة وأخرى ، فكان يتوجه إلى رشيد البائعون والمشترون، فتتم عمليتا البيع والشراء سواء بالمقايضة أو النقود[٢١٨] وكانت رشيد تحصل على كثير من مواردها من ريفها المحيط بها ، حيث كانت تتجمع غالبية المحاصيل ، كما تدفع إلى ريفها بإنتاجها الصناعى ، وما يرد إليها من سلع من الأقاليم الأخرى. كما أنها تُعد مركزًا لجذب سكان الريف المحيط بها لما تقدمه من أجور مرتفعة و لتوفر خدماتها وتحضرها[٢١٩] .

أ - التجارة الداخلية

تمثلت التجارة الداخلية فى رشيد فى تجارة الجملة التى يقوم فيها التجار بتسويق و شراء السلع بكميات ضخمة من منتجيها ، على أن يقوم تجار التجزئة بالشرط الثانى المكمِّل، وهو تسويق هذه المنتجات للمستهلكين فى الأسواق الداخلية[٢٢٠]. ولعب التبادل التجارى بين ثغر رشيد والمدن المصرية الأخرى دوراً هاماً بالنسبة لانتعاش الثغر اقتصاديًا .

وكان ثغر رشيد مستودعًا لبضائع التجار التى تنقل بين بولاق ومصر القديمة والإسكندرية ، و ذلك لأن السفن القادمة من بولاق وغيرها عبر فرع رشيد لم تكن تتجاوز رشيد فى معظم الأحيان[٢٢١]، كما لعب تجار رشيد و الإسكندرية دورًا وسيطًا فى نقل وتسويق منتجات مدن و قرى الدلتا و الصعيد[٢٢٢] .

وكانت رشيد قد ورثت الدور التجارى الذى لعبته مدينة فوه فى أوائل العصر العثمانى[٢٢٣] و كانت منتجاتها الزراعية تُنقَل إلى الإسكندرية بحرًا بالنقاير وهى سفن شراعية صغيرة[٢٢٤] أو برًا عبر درب رشيد المحاذى لساحل البحر المتوسط بواسطة الحمير والبغال والجمال التى تقطع المسافة بين رشيد والإسكندرية فى نهار يوم من صباحه إلى عصره ، كما كانت رشيد تصل إليها منتجات بلطيم والبرلس من الفواكه والبطيخ حيث تحمل المراكب هذه المنتجات بحرًا إلى رشيد[٢٢٥] .

وكانت تجارة رشيد الداخلية تُعقَد فى أسواق أسبوعية أو أسواق دائمة الانعقاد، حيث كان تجار رشيد يتبادلون فيها مع تجار المدن الأخرى المنتجات الزراعية[٢٢٦] . وقد أشارت سجلات المحاكم الشرعية إلى أن المنتجات الزراعية هى أهم المعاملات التجارية داخل رشيد، فنجد منها: تجارة الحنّة[٢٢٧] والعجوة والكتّان[٢٢٨] والقلقاس[٢٢٩] ، والأرز الأبيض المغسول بالملح[٢٣٠] ، والقمح [٢٣١] ، والدقيق[٢٣٢] وتجارة البغال والحمير[٢٣٣] ، وتجارة السكر[٢٣٤] ، والعدس والفول والترمس[٢٣٥] والليمون و البازلاء[٢٣٦] والتين والبندق والزبيب [٢٣٧] والدخان والقطن والمشمش ، والأقمشة والأسماك ، والجبن والعسل وحب العزيز ، والجلود والجوخ ، والزيوت وغيرها من المنتجات [٢٣٨].

كما شملت التجارة الداخلية أيضًا الشراء و البيع فى العقارات فى رشيد، و كان يتم الشراء عن طريق الوكالة لأحدهم، و قد يكون هذا الشراء منزلاً كاملاً، وفى هذه الحالة تذكر الوثيقة مواصفات المنزل بالتفصيل ، كما ينص أحيانًا عقد البيع على استلام البائع الثمن نقدًا، و أن المشترى قد استلم المنزل[٢٣٩] واشترى أحدهم بصفته وصيًا على إخوته البنات منزلاً محددًا مواصفات أيضًا[٢٤٠] ، وأحياناً يشترى أحدهم حصة فى منزل أحد الأهالى ولا بد فى هذه الحالة أن يثبت البائع أن هذه الحصة قد نُقِلَت إليه عن طريق الإرث[٢٤١] . أما بخصوص البيع فى هذا المجال فقد باع أحد الأشراف فى المدينة كل نصيبه فى المنزل إلى أحد التجار[٢٤٢] ، كما باع أحدهم نصيبه فى الإرث الشرعى لأخيه[٢٤٣].

وكانت التجارة الداخلية تتم بين رشيد والإسكندرية وبولاق والسويس وغيرها من المدن المصرية الأخرى[٢٤٤] . لكن وثائق المحاكم الشرعية أوضحت أنه كان يوجد نوع من التعامل بين أهالى رشيد وبين التجار والسماسرة والدلالين بعضهم البعض ، وذلك عن طريق نظام المحاسبة، ونظام التقسيط، ونظام السداد بالأجل ، ونظام القروض ، ونظام السداد ، ونظام المشاركة[٢٤٥] .

أولاً. فئات التجار

كانت رشيد فى العصر العثمانى مركزًا يفد إليه التجار من الشرق و الغرب ، حيث وجد بمينائها التجار من المسلمين و رعايا الدولة العثمانية وكذلك من الأوروبيين وغيرهم من سائر الأجناس ، وكان التجار يقدمون من أزمير واستانبول وبغداد وحلب وجدة وينبع ، ويصلون إلى رشيد مع بضائعهم التى يبيعونها ثم يرحلون بعد أن يبيعوا هذه البضائع ويشتروا بثمنها بضائع أخرى من أسواق رشيد لتباع فى بلادهم[٢٤٦]. وشهدت أسواق رشيد تزايداً لهذه الفئة مع بدايات النصف الثانى من القرن السادس عشر ، وقد استطاعت هذه الفئة من أعيان التجار أن تكوِّن لنفسها مكانة اجتماعية وأن تكون لها علاقات اجتماعية واسعة ، وأن تكون ذات نفوذ واسع[٢٤٧] . وانتمى معظمهم إلى الأوجاقات من باب الوجاهة الأدبية ، وكوَّنت لنفسها بأعمال الخير مكانة اجتماعية متميزة بين الفئات الأخرى[٢٤٨] .

وكانت هذه الفئة تكوِّن وحدة متماسكة فيما بينها ، وكانت جميع منازعاتهما تُحَل فى إطارها ، حيث وجد منصب شاه بندر التجار[٢٤٩] أى كبير التجار، ويبدو لنا من وثائق المحاكم الشرعية أن صاحب هذا المنصب كان يتقلده بناء على اختيار التجار له ، ولابد من أن الذى يُختار لشغل هذا المنصب الفخرى أن يكون حسن السيرة ، طيب السمعة ، مشهودًا له بالعفة و النزاهة ، و كانت مهمته أن يلجأ إليه التجار فى حل منازعاتهم بخاصة فئة كبار التجار ، و يتضح لنا من الوثائق أن كل من تولوا هذا المنصب كانت تتوفر فيهم هذه الصفات ، و استطاعوا أن يقوموا بدور بارز فى حل مشاكل التجار ، وأن يشرفوا بحكمة على السوق ، وتكون كلمتهم مسموعة فى حل الأزمات[٢٥٠] وقد وجد هذا المنصب منذ بداية العصر العثمانى ، و كان يحتاج إلى موافقة السلطات الحاكمة لتنصيبه[٢٥١] ، ومارس هؤلاء التجار نشاطهم التجارى دون فرض أى قيود على أسلوبهم التجارى و طرق استثمارهم لرؤوس أموالهم ، كما تمكنوا من تنمية ثرواتهم عن طريق استيراد السلع التى تحتاجها السوق المحلية من منتجات بلدانهم والبلدان الأخرى ، وتصدير الفائض عن حاجة هذه السوق من المنتجات المصرية[٢٥٢] .

أما طوائف التجار فى رشيد فكانوا مثل أى طائفة من طوائف الحرف ، تذكر الوثائق طوائف تجار التجزئة لسلعة ما ، وتجار القطَّاعى بالسوق ، كما أُطلِقَ على التجار أيضًا لفظ «الخواجكية»[٢٥٣] ومن أشهر تجار رشيد تجار الكارمية[٢٥٤] وجد أيضًا فى رشيد الكثير من التجار الأوروبيين و وكلائهم [٢٥٥]

وكانت اختصاصات وكلاء التجار الأوربيين تحدد من قبل الموكلين أمام الحاكم الشرعى حيث تتمثل معظم هذه الاختصاصات فى عمليات البيع والشراء والضمان والاستيفاء. وكان التجار من الأجانب القادمين إلى رشيد أو المتأهبين للسفر منها ينزلون فى خانات متقاربة أعدت لهم وكان ضروريًا وجود ضامن يضمن التجار من الأجانب لدى السلطات الإدارية ضمانًا لحقوق التجار لديهم فى معاملاتهم وديونهم. وغالبًا ما كان القناصل الأوربيون فى رشيد أو وكلائهم هم الضامنون لرعايا دولهم. ويحصل هؤلاء النواب رسومًا على رعاياهم من التجار من قيمة السلع الواردة من بلادهم والصادرة إليها ، وسمى هذا الرسم باسم «رسم قنصلية» .

أما التجار المغاربة فكانوا ينوبون أحدهم لدى الحاكم الشرعى وكيلاً عنهم ، وعليه حفظ أمانات التجار وأُطلِقَ عليه لقب «يازجى» وأصبح يؤدى دورًا أشبه بدور القناصل[٢٥٦] ، كما عمل أيضًا الكثير من الشوام بالتجارة فى رشيد[٢٥٧] . وإلى جانب فئة التجار استلزم وجود الوسطاء الذين يعملون دائماً فى المجالات التجارية وهم طائفتا «السماسرة والدلالين، والمتسببين»[٢٥٨] .

وكانت توجد رسوم تدفع على التجار الأوروبيين و على شيخ الدلالين عرفت باسم (مرتجع سريازار مع شادية دربندر رشيد) و كانت هذه المقاطعة تتكون من جهتين رئيستين، أولهما تعطى لملتزمها حق جباية الضرائب على التجار الأوروبيين الذين كانوا ينزلون إلى أسواق رشيد و تحصيل ضريبة على شيخ طائفة الدلالين مقابل تفويضه فى تحصيل رسوم على كل السماسرة و الدلالين الذين يقومون ببيع الملابس والبياضات والهلاهيل أى فضلات الأقمشة فى الاسواق العامة برشيد، ويدفع الملتزم الأصلى للمقاطعة الرئيسة عن هذه الجهة ألف بارة للخزينة السلطانية ، غير أنه يُلزمها بمبلغ

أعلى من باطنه ، أما الجهة الثانية فتختص بتحصيل ضريبة قدرها ألف بارة يدفعها مدير جمرك رشيد عن نفسه وزميله (شاد الجمرك) وهو الذى كان يقوم بإدارة ديوان جمرك رشيد ، وذلك نظير انتفاعه بالعوائد المتحصلة والتى يتقاضاها بحكم منصبه ، حيث كان شاغل هذا المنصب مسئولاً عن تفتيش المراكب ومعه دزدار قلعة رشيد لضمان عدم خروج السلع المحظور تصديرها كالحبوب و الأرز[٢٥٩].

أما عن عمليتى البيع والشراء فكانت تتم عن طريق نظم السداد الفورى وبالأجل وبالتقسيط ، أو الدفع المقدم . وطريقتا الضمان والرهن ، والتقسيط والبيع بالأجل كانت من أكثر الطرق المتّبعة فى السداد انتشارًا فى رشيد ، واتبعها التجار الأجانب كذلك فى معاملاتهم التجارية[٢٦٠].

ب ـ التجارة الخارجية

أطلقت الدولة العثمانية حرية التجارة بين ولاياتها والدول المختلفة شرقية وغربية سواء الواردات أو الصادرات ، ولكنها حظرت تصدير بعض السلع من ولاياتها كالبن والغلال والبارود[٢٦١]

وما يعنينا فى هذا المجال التعرف على حركة التبادل التجارى بين مصر والدول الأوروبية المختلفة وأهم السلع المتبادلة و حجمها وأهميتها لكل من الطرفين، ومدى مساهمة التجار الإفرنج فى النشاط التجارى بين مصر وبلادهم . وقد منحت المعاهدات التجار الإفرنج والسماسرة حرية التجارة فى مصر بجميع أصناف بضائعهم بدون أن يلحق بهم ضرر أو مصادرة لبضائعهم ، وعدم إجبارهم على شراء سلع ضد رغبتهم ، ولهم مطلق الحرية فى اختيار السماسرة الذين يساعدونهم فى أعمالهم[٢٦٢] كما نصت المعاهدات على حق السفن الأوروبية فى نقل البضائع فى الممتلكات العثمانية طالما سددت الرسوم. و قد جذبت التجارة نشاط معظم الجاليات الإفرنجية أكثر من أى مجال آخر، وقد لعب التجار الإفرنج دورًا بارزًا فى التجارة مع بلادهم سواء الواردات منها أو الصادرات .

أما عن ثغر رشيد فمن الملاحظ أنه كان مستودعًا لتجارة دول أوروبا و شعوب سوريا ، هذا بالإضافة إلى وجود مؤسسات أوروبية لمختلف الدول و ذلك فى القرن السادس عشر[٢٦٣] . وانتشر فى مدينة رشيد العديد من التجار الأجانب فكان منهم الفرنسيون ، واليونانيون ، والشوام و المغاربة[٢٦٤] وقد تأثر وجود الجاليات الأوروبية فى رشيد بخاصة ومصر بعامة من حيث القلة أو الكثرة أو حجم النشاط التجارى لها بشكل أو بآخر بالظروف السياسية التى ألمت بموطنهم الأم[٢٦٥] .

لقد كان لتطور التجارة الداخلية و الخارجية فى رشيد أثره فى ازدهار المدينة وتطورها واتساع عمرانها ، فقد أنشئت العمائر التجارية المختلفة التى شملت الأسواق ، والقياسر ، والوكائل ، والخانات والفنادق [٢٦٦] .

ونجد أن نظام المنشآت التجارية المتخصصة كان يقوم على أساس تداول السلعة الواحدة فى مكان واحد قد عمل على توحيد الأسعار وإمكانية المراقبة التامة للأسعار والبضائع والموازين والمكاييل، كما أتاحت الغرف والمساكن التى كانت تشغل أعلى الوكائل والخانات لأصحاب الحوانيت والتجار من الغرباء أو الأجانب الإقامة القريبة وسهولة الاتصال لعقد الصفقات وتصريف التجارة ، كما أسهم النظام فى إدارة هذه المنشآت وضمان حسن الإشراف والرقابة، مع ما لذلك من تأثير إيجابى على كل من التاجر والمستهلك .

وظلت الأحوال الاقتصادية لمدينة رشيد كما هى منذ بدايات العصر العثمانى وحتى تولى محمد على حكم البلاد عام ١٨٠٥م فقام بتغيير أحوال مصر بأكملها وأصبح كل شئ فى يده، وبعد ذلك جاءت حملة فريزر ١٨٠٧م على مدينة رشيد والحمّاد فتغير وضع الأهالى وأحوالهم الاقتصادية طبقاً للأوضاع الجديدة التى مرت بها البلاد فى عصر محمد على .

معركة رشيد ١٨٠٧م ودور الأهالى فيها

كانت خطة الانجليز فى القتال أن يزحف المماليك على القاهرة فيحتلوها ، وأن يحتل الانجليز بمعاونة أسطولهم ثغور مصر، ويزحفوا إلى الداخل ويبسطوا أيديهم على حكومة البلاد مستعينين بصنائعهم المماليك .

وقد تلقى الجنرال فريزر وهو عن بُعد فى الإسكندرية تقريرًا من المستر بتروتشى قنصل انجلترا فى رشيد عن حالة مصر وإحصاء ما بها من القوات ، فأمعن النظر فى هذا التقرير ودرس الموقف ، واعتزم الزحف على رشيد لاحتلالها واتخاذها قاعدة حربية يتزود منها الجيش ومنها يزحف إلى داخل البلاد، وعهد بهذه المهمة إلى الجنرال ويكوب وأنفذه إليها فى قوة من ٢٠٠٠ من الجنود (٢٦٧) .

وكان محافظ إقليم رشيد على بك السلانكلى كل قواته ٧٠٠ جندي، فعزم على مقاومة عساكر الانجليز . واستنفر الشيخ حسن كيريت الأهالى للمقاومة الشعبية . فأمر بإبعاد المراكب المصرية من أمام شاطىء النيل برشيد الى البر الشرقى المقابل عند الجزيرة الخضراء وبرج مغيزل بمركز مطوبس. وكان الهدف منع الأهالى من ركوبها والفرار من المدينة، حتى لايجد رجال حاميته وسيلة للارتداد أو الاستسلام أو الانسحاب كما فعلت حامية الإسكندرية من قبل وأصبحت الحامية بين الأهالى متوارية بالمنازل داخل مدينة رشيد . و البحر من ورائهم والعدو أمامهم ولا مناص إلا القتال والمقاومة ، وأمرهم بعدم التحرك أو إطلاق النار إلا بعد صدور إشارة متفق عليها. فتقدم الانجليز ولم يجدوا أى مقاومة ، فاعتقدوا أن حامية المدينة ستستسلم كما فعلت حامية الإسكندرية. فدخلوا شوارع المدينة مطمئنين. وأخذوا يستريحون بعد السير فى الرمال من الإسكندرية إلى رشيد. وانتشروا فى شوارع المدينة والأسواق للعثور علي أماكن يلجئون إليها ويستريحون فيها. وما كادوا يستريحون حتي انطلق نداء الآذان بأمر السلانكى من فوق مئذنة سيدى زغلول مردداً: الله أكبر. حى على الجهاد. فانهالت النيران من الأهالى وأفراد حامية رشيد من نوافذ المنازل وأسطحها، فقتل جنود وضباط من الحملة وهرب من بقى حيًا وبلغ عدد قتلى الانجليز ١٧٠ قتيلا و٢٥٠ جريحًا و١٢٠ أسيرًا لدى حامية رشيد(٢٦٨). وبذلك نجد أنه وقع عبء الدفاع عن مدينة رشيد على كاهل الشعب وحاميتها القليلة العدد والعُدّة ، فتكاتف الشعب مع الجيش قد كفل لهم النصر على أعدائهم، فضربوا بذلك أروع الأمثلة فى الشجاعة والبطولة والفداء . مما كان له أبعد الأثر فى رفع الروح المعنوية لدى المصريين كافة، فاستعد أهالى كل بلد لملاقاة الانجليز بنفس القوة وبنفس الشجاعة (٢٦٩)

احتفل أهالى رشيد بانتصارهم على الانجليز احتفالاً كبيراً، فقد أرسل محافظ رشيد إلى القاهرة أسرى الحرب، وكذلك رؤوس القتلى الانجليز، وذكر الجبرتى «وشقوا بهم من وسط المدينة وفيهم فسيال (ضابط) كبير وآخر كبير فى السن وهما راكبين على حمارين والبقية مشاة فى وسط العسكر، ورؤوس القتلى على نبابيت وعدتها أربعة عشر رأساً، والأحياء خمسة وعشرون ، وفى يوم الإثنين وصل أيضاً جملة من الرؤوس والأسرى إلى بولاق فطلعوا بهم على الرسم المذكور وعدتهم مائة وواحد وعشرون رأساً وثلاثة عشر أسيراً فيهم جرحى» [٢٧٠].

وكان الهدف من هذا الاحتفال رفع الروح المعنوية لدى الشعب ، وشحذ الهمم ، وإعطاء الدليل العملى على النصر ، إسكاتًا للأصوات التى قد ترتفع لإلقاء ظلال من الشك حوله ، أو التقليل من قيمته .

وحاول الانجليز مرة أخرى إعادة الكرّة على رشيد لمحو العار الذى لحق بهم ، لم يقف أهل مصر مكتوفى الأيدى أمام تلك المحاولة الغادرة ، فهبّوا إلى نجدتها من كل المناطق والأقاليم المحيطة بها ، وتطوع عدد كبير من أهل القاهرة للقيام بواجبهم إلى جوار إخوانهم أهل رشيد .

وفى هذه المحاولة الجديدة أحاط الانجليز برشيد إحاطة السوار بالمعصم ، وظلوا يضربون البلد بالمدافع والقنابل، وقد تهدم الكثير من الدور والأبنية ومات كثير من الناس، وفى تلك الأثناء وصل محمد على إلى القاهرة عائدًا من الوجه القبلى ، وعلم بانتصار رشيد وما قام به الأهالى من استعدادات للحرب ، واجتمع بزعماء المصريين وعلى رأسهم السيد عمر مكرم لتنظيم شئون الدفاع وتدبير الأموال اللازمة لإعداد جيش قوى لصد هجمات الانجليز. وفاوض محمد على الجنرال فريزر على الانسحاب من مصر التى غادرها مع قواته. وأحبط أهالى رشيد المشروع البريطانى لاحتلال مصر وفى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧م وقع الطرفان المعاهدة ، ونصت على جلاء الانجليز عن الإسكندرية وتسليمهم الأسرى والجرحى من جنودهم. وفى ١٩سبتمبر يخرج آخر جندى انجليزى من المدينة . . وأصبح يوم ١٩سبتمبر العيد القومى لمحافظة البحيرة .

وبذلك نجد أن الزراعة والصناعة والتجارة شكّلت إطار النشاط الاقتصادى فى رشيد ، فعن الزراعة عوملت الأراضى الزراعية التابعة لرشيد كجهة من مقاطعات الالتزام وهذا ما جعل بعض الفلاحين يشعرون بمعاناة جعلت البعض منهم يهرب تاركاً خلفه أرضه بغير زراعة ، أما الصناعات والحرف التى أديرت من خلال النظام الطائفى على نحو ما سبق فقد اتسمت بالجمود، وأدى ذلك إلى تراجع الدور الصناعى بالثغر . وفى النهاية نجد أن التجارة الداخلية والخارجية فى رشيد لم تقم عليها قيود، وكانت حرية التجارة مكفولة للجميع ما داموا يؤدّون ما عليهم من ضرائب جمركية؛ لذلك شهدت رشيد وكلاء وقناصل وتجار من مصريين وعثمانيين وشوام ومغاربة وأجانب على اختلاف جنسياتهم .

المصادر والمراجع

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، «العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية فى العصر العثمانى ١٥١٧ ـ ١٧٩٨» (المجلة التاريخية المغربية ، العدد ٢٩ـ٣٠ ، سنة ١٩٨٣)، ص٣٩٦

(٢) سورة الفرقان ، آية ٥٣ .

(٣) صلاح أحمد هريدى، دراسةعن بعض جمارك مصر فى القرن الثامن عشر (دارالمعرفة الجامعية، الإسكندرية،١٩٨٩) ص١٢، فاروق عثمان أباظة ، أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٤، ط٢) ص ١٣ ،١٤ .

(٤) إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار (القاهرة ، د. ت ، ج٢، ط١) ص٨١.

Jean Coppin , Les Voyages en Egypte de Jean Coppin , 1638 - 1646 (L'institut français D'archeologie orientale du caire, 1971) P.28.

(٥) عبد الفتاح وهيبة ، دراسات فى جغرافيا مصر (الإسكندرية ،١٩٧٥) ص ١٥٨.

(٦) محمد محمود السروجى ، الإسكندرية فى العصر الحديث فى كتاب تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور (الإسكندرية ١٩٦٣) ص ٣٢٩ ،٣٣٠.

(٧) صلاح أحمد هريدى،الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة رشيد فى العصر العثمانى، (المجلة التاريخية المصرية ، المجلد٣٠، ٣١ ،١٩٨٣ـ ١٩٨٤) ص ٣٢٩ .

(٨) Pierre Belon de Mans , Voyage en Egypte , 1547, (L'institut français D'archeologie orientale du caire, 1970) P.97

(٩) جولوا ، دراسات عن المدن و الأقاليم المصرية ، «مدينة رشيد» من موسوعة وصف مصر، ترجمة زهير الشايب (القاهرة ، ١٩٩٢) ص ١٣ .

(١٠) صلاح أحمد هريدى،الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة رشيد فى العصر العثمانى ، ص٣٢٩ .

(١١) محمد محمود زيتون ، إقليم البحيرة (الإسكندرية ١٩٦٢) ص١٢٧.

(١٢) جلال يحيى ، مصر الحديثة (١٥١٧ ـ ١٨٠٥ م) (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٨٢) ص١٣٨.

(١٣) G.A. Olivier, voyage dans L'empire Ottoman l'Egypte et la perse (Imprimeri, Paris, 1807) Tome 3, P.89

(١٤) عبد الحميد حامد سليمان ، تاريخ الموانئ المصرية فى العصر العثمانى (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥) ص ٢٦٥ـ ٢٦٦ ، سلسلة تاريخ المصريين .

(١٥) عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، (مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٨٦) ، ص ١٩٠ .

(١٦) Savary , letters sur l'egypte , paris,3tomes,1798 Tome 2, P.2

(١٧) G.A. Olivier ,op.cit p.284.

(١٨) فولنى ، ثلاثة أعوام فى مصر وبر الشام ، ترجمة إدوارد البستانى ، القاهرة ، ج١ ، ١٩٩٤، ص ٥٦ .

(١٩) محمد محمود زيتون ، المرجع السابق ، ص١٣٩ .

(٢٠) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٦٥، مادة١٥٤ ، ص٩٣ ، بتاريخ ٧ جمادى الثانية ١٠٦٢هـ / ١٦٥١م ، سجل ٨٥ ، مادة١٦، ص١١، بتاريخ ٢٩ ذى الحجة ١٠٨٤هـ / ١٦٧٣م.

(٢١) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١١، مادة ٦٢٣ ، ص١٤١، بتاريخ ٢٦ ذى القعدة ٩٨٩هـ / ١٥٨١م ، سجل ٥٧، مادة٦٦٦ ، ص٢٩٥ ، بتاريخ ١١ رجب ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م .

(٢٢) عبد الحميد حامد سليمان ، مرجع سابق ، ص ٣٣٥.

(٢٣) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٦، مادة ٤٨٢ ، ص١٥٠ ، بتاريخ ١٧ ربيع الأول ٩٩٦هـ / ١٥٨٧م ، جميل خانكى ، تاريخ البحرية المصرية ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة، ١٩٤٨ ص٢١٩.

(٢٤) عبد العزيز الشناوى ، الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى ، ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة - مارس - إبريل ١٩٦٩،دار الكتب ، القاهرة ، ج٢ ، ١٩٧١، ص ٦٦٩ ـ ٦٧٠.

(٢٥) Shaw , The financial, PP. 27, 32, 35 .

(٢٦) Ibid , PP.36-37.

(٢٧) إبراهيم المويلحى ، الأرض و الفلاح فى العصر العثمانى ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٤، ص ٢٣٦ .

(٢٨) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٦، مادة٧٩٨ ، ص١٧١، بتاريخ ٥ جمادى الأولى ٩٨١هـ / ١٥٧٣م ، سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١، مادة٤١ ، ص١١، بتاريخ ١٨ ذى القعدة ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م ، سجل ٥٤، مادة ٥٧٨ ، ص٢١١، بتاريخ ٢٨ ذى القعدة ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م .

(٢٩) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٦، مادة ٧٩٩ ، ص١٧٢، بتاريخ ٦ جمادى الأولى ٩٨١هـ / ١٥٧٣م ، سجل ٥٤، مادة ١٣٣، ص٥٨، بتاريخ ٩ رمضان ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م .

(٣٠) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٢٦، مادة ٢٢٢ ، ص٥٩، بتاريخ ٢ ربيع الأول ١٠٠٩هـ / ١٦٠٠م ، سجل ١٩٨، مادة٢٤٦ ، ص١١٥، بتاريخ ٢٣ ذى القعدة ١٢٠٨هـ / ١٧٩٣م .

(٣١) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٧، مادة ٨٨٢ ، ص٢١٥، بتاريخ ١٤ ربيع الأول ٩٨٣هـ / ١٥٧٥م ، سجل ٣٠، مادة ١٩٢١، ص٥١٧، بتاريخ ١٥ محرم ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م.

(٣٢) سجلات محكمة رشيد الشرعية . سجل ٢٦، مادة ٢٢٤ ، ص٦٠، بتاريخ ٣ ربيع الأول ١٠٠٩هـ / ١٦٠٠م .

(٣٣) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٦، مادة ٤٨٢ ، ص١٥٠، بتاريخ ١٧ ربيع الأول ٩٩٦هـ / ١٥٨٧م .

(٣٤) سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ٨، مادة ٦٩٩، ص٢٠١، بتاريخ ٢ رجب ٩٨٥هـ / ١٥٧٧م .

(٣٥) محمد عفيفى ، الأوقاف و الحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،١٩٩١) ص ٨٦ ـ ٩٠ .

(٣٦) سجلات محكمة إسكندرية الشرعية ، سجل ٤٤ ، مادة ١٧١ ، ص٨٢ ، بتاريخ ٢٣ شعبان ١٠٣٢ هـ/ ١٦٢٣ م .

(٣٧) سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ٨، مادة ٦٩٩، ص٢٠١، بتاريخ ٢ رجب ٩٨٥ هـ / ١٥٧٧م.

(٣٨) الدشايش ، هى أوقاف الدشيشة الكبرى و المرادية ، والمحمدية ، والأحمدية ، وهى سابقة على العصر العثمانى ، وهى من أوقاف السلاطين المماليك ، و الدشيشة عبارة عن قمح مجروش يرسل لفقراء الحرمين الشريفين (مكة و المدينة) ، أما أوقاف المحمدية و المرادية و الأحمدية فهى أوقاف وقفها سلاطين العثمانيين فى مصر وخصصوها لأهالى الحرمين الشريفين و كانت تمثل الإيرادات المرسلة مالاً أو غلالاً إلى الحرمين الشريفين (عفاف مسعد العبد،الروضة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ٩٢٣هـ ١٠٧١هـ / ١٥١٧ـ ١٦٦٠م لابن أبى السرور البكرى ، رسالة دكتوراه ـ كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٩م ص٦٨) .

(٣٩) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٦، مادة ٣٢٨ ، ص٧٠، بتاريخ ١٨ جمادى الأولى ٩٨١هـ / ١٥٧٣م ، سجل ٣٨، مادة ٤٤١ ، ص١٨٨، بتاريخ ١ صفر ١٠٢٦هـ /١٦١٧م .

(٤٠) Etienne Combe , Precis, PP.68-69 .

(٤١) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، بولاق ٤ أجزاء ، ١٢٩٧هـ ، ج٢، ص ١٠٧.

(٤٢) محمد عفيفى ، مرجع سابق ، ص ٢٠٢.

(٤٣) راشد البراوى ، محمد حمزة عليش ، التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٥ ، ١٩٥٤ ص١٤.

(٤٤) ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر و القاهرة ، تحقيق مصطفى السقا (مركز تحقيق التراث ، القاهرة ١٩٦٩) ص١٦١ ، ١١١.

(٤٥) على مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق ، ج١١ ، ص٧٦.

(٤٦) أحمد الحته ، تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر، مطبعة المصرى ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص٤ ، ٥ .

(٤٧) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى ، ص١٩٧.

(٤٨) أحمد الحته ، مرجع سابق ، ص٨

(٤٩) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى ، ص ١٩٩.

(٥٠) أحمد الحته، مرجع سابق ، ص٨ .

(٥١) جولوا ، مدينة رشيد ، من موسوعة وصف مصر ، ترجمة زهير الشايب ، المجلد ٣ ، ط١، ١٩٧٨ ، ص٣١ . Savary , Op.Cit, Tome 2 ,P.274

(٥٢) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٦، مادة ٢٦٧ ، ص٨٢، بتاريخ ٩ صفر ٩٩٦هـ/١٥٨٧م .

(٥٣) Olivier , Op.Cit, P.309 .

(٥٤) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٣٠، مادة ٤٧ ، ص١٢، بتاريخ ٢٩ ذى الحجة ١٠١٣هـ / ١٦٠٤م ، سجل ١٩٨، مادة ١٩، ص١١، بتاريخ ١٥ محرم ١٢٠٨هـ / ١٧٩٣م ، سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ٨٢، مادة ٢٠٨، ص١٧٣، بتاريخ ١٥ شوال ١١٦٧ هـ/ ١٧٥٣ م .

(٥٥) سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ١٢، مادة ٧٩٢، ص٢١٧، بتاريخ ١١جمادى الأولى ٩٩٠هـ / ١٥٨٠م ، سجل ٣٠، مادة ٦٣٩، ص١٦٢، بتاريخ ١٢ربيع الثانى ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م.

(٥٦) Sonnini , voyage dans la haute et basse Egypte (imprimerie ,Tome 1,1970, P.294

(٥٧) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٥، مادة ١١٠١ ، ص١٩٦، بتاريخ ١٥ جمادى الأولى ٩٩٥هـ / ١٥٨٦م ، سجلات محكمة أسكندرية الشرعية ، سجل ١ ، مادة ١٨١١ ، ص٤٣٥ ، بتاريخ ١٨ جمادى الثانية ٩٥٨ هـ/ ١٥٥١ م

(٥٨) ب . س . جيرار ، موسوعة الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، من موسوعة وصف مصر ، ترجمة زهير الشايب ، مجلد ٤ ، ج١، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٨٦

(٥٩) إلهام محمد ذهنى ، مصر فى كتابات الرحالة و القناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ١٧١.

(٦٠) محمد فؤاد شكرى ، بناء دولة مصر محمد على (دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ط١) ص٧٢٧.

(٦١) Shaw , Ottoman Egypt in the age of the french revolution , P. 170, The Financial , P.79

(٦٢) ب . س . جيرار ، موسوعة الحياة الاقتصادية ، ص ٢٩, ٣٠ .

(٦٣) المرجع السابق ، ص٢٨

(٦٤) عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى ، ص٢٠٨.

(٦٥) ب . س . جيرار ، المرجع السابق ، ص ١٠٥

(٦٦) Sonnini , Op.Cit, Tome 3, P.197 .

(٦٧) ب . س . جيرار ، المرجع السابق ، ص١٠٤ ـ ١٠٥ ، أحمد الحته ، مرجع سابق ، ص١٠.

(٦٨) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٦، مادة ٣٢٨ ، ص٧٠، بتاريخ ٢٨ جمادى الأولى ٩٨١هـ / ١٥٧٣م .

(٦٩) عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى ، ص ٢٠٩ .

(٧٠) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٨، مادة ١٨٤ ، ص٥٥، بتاريخ ١٢ ربيع الأول ٩٨٥هـ / ١٥٧٧م .

(٧١) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٦، مادة ٣٢٣ ، ص١٠٣، بتاريخ ١٧ صفر ٩٩٦هـ / ١٥٨٧م .

(٧٢) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٦، مادة ٣٢٤ ، ص١٠٣، بتاريخ ١٧ صفر ٩٩٦هـ / ١٥٨٧م .

(٧٣) أحمد الحته ، مرجع سابق ، ص١٠ .

(٧٤) عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى ، ص ٢١٠ .

(٧٥) أحمد الحته ، مرجع سابق ، ص٣

(٧٦) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٠، مادة ٧٥٤، ص١٨٦، بتاريخ ٤ جمادى الأولى ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م ، سجل ١٦، مادة ٢٦٧، ص٨٢، بتاريخ ٩ صفر ٩٩٦هـ / ١٥٨٧م.

(٧٧) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٩٨، مادة ٣٠، ص٢٢، بتاريخ ٢٠ صفر ١٢٠٨هـ / ١٧٩٣م ، سجل ٨٥، مادة ١٦، ص١١، بتاريخ ٢٩ ذى الحجة ١٠٨٤هـ / ١٦٢٨م .

(٧٨) عبد الرحمن الجبرتى ، مصدر سابق ، ج٢ ص ٢٣٩.

(٧٩) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل٣٢ ، مادة ٤٤٢ ، ص١٧٠ ، بتاريخ ٥ ذى الحجة ١٠٠٨ هـ/ ١٥٥٩ م ، سجل ١٠٠، مادة ٤١٣، ص٢٥٢، بتاريخ ٢٠ ربيع الثانى ١١٩٩هـ / ١٧٨٤م .

(٨٠) ليلى عبد اللطيف ، دراسات فى تاريخ مؤرخى مصر و الشام ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٨٠، ص٥٧ .

(٨١) أحمد شلبى عبد الغنى، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ، ١٩٧٨، ص١٧ .

(٨٢) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٥٨ .

(٨٣) حسين على الرفاعى ، تطور الصناعات فى مصر (القاهرة ، ١٩٣٤) ص٢٩.

(٨٤) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٢١، مادة ١٨٤ ، ص٥٥، بتاريخ ١٥ شوال ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م ، سجل ١١٥، مادة ١٧٣ ، ص١٠٥، بتاريخ ١٢ شوال ١١٢٥هـ / ١٧١٣م ، سجل ١٥٣، مادة ١٨١ ، ص١٧٦، بتاريخ ١٩ شوال ١١٦١هـ / ١٧٤٨م .

(٨٥) عبد العزيز الشناوى ، الأزهر جامعًا و جامعة ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، مارس - ابريل ١٩٦٩، دار الكتب المصرية ، ج٢، ١٩٧١، ص ٥٩ .

(٨٦) ليلى عبد اللطيف ، مرجع سابق . ص ٥٩ .

(٨٧) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٩٢ .

(٨٨) سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية (القاهرة ، ١٩٥٩) سلسلة الألف كتاب ، ص ٢٠٦ .

(٨٩) ليلى عبد اللطيف ، مرجع سابق ، ص ٥٩، عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ج ٣، سنة ٢٠٠٠م ، ص ٥٠٠-٥١٠ .

(٩٠) أمين عز الدين ، تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى سنة ١٩١٩(القاهرة ١٩٦٧) ص٣٢ .

(٩١) روبير مونتران ، العلاقات بين القاهرة واستانبول أثناء الحكم العثمانى لمصر من القرن السادس عشر وحتى الثامن عشر ، ترجمة زهير الشايب ، مجلة المجلة ، العدد ١٥٨، ١٩٧٠، ص٦٠ .

(٩٢) اندريه ريمون ، القاهرة العثمانية بوصفها مدينة شئون البلديات و مشكلات المرافق ، ترجمة زهير الشايب، مقالة فى المجلة التاريخية المصرية، المجلد العشرون، ١٩٧٣ ، ص٢١٥.

(٩٣) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٥٤، مادة ٧٨٨ ، ص٢٧٧، بتاريخ ١٦ ربيع الأول ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م .

(٩٤) راشد البراوى ، مرجع سابق ، ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(٩٥) أحمد الحته ، مرجع سابق ، ص ١٢ .

(٩٦) صلاح أحمد هريدى ، الحرف و الصناعات فى عهد محمد على (دار المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٥) ص٣٩.

(٩٧) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٢١، مادة ١٨٤ ، ص٥٥ ، بتاريخ ١٥ رمضان ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٤ م .

(٩٨) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١١٥، مادة ٣٩٠ ، ص٢٤٧ ، بتاريخ ١١ محرم ١١٢٦ هـ / ١٧١٤ م .

(٩٩) سجلات أصول مال إسكلها ومقاطعات ، دفتر سنة ١٠٥٣هـ /١٦٤٣م ، رقم ٤١٣٩، مخزن ١ تركى ، عين ٥٣ ، سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٢١، مادة ٥٤ ، ص١٧ ، بتاريخ ٢٤ شعبان ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٤ م .

(١٠٠) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٧٠، مادة ١٥٠ ، ص١٨١، بتاريخ ٢ ربيع الثانى ١١٧٨ هـ / ١٧٦٤ م

(١٠١) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٢٦، مادة ١٧٩ ، ص٦٠ ، بتاريخ ٢ رجب ١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠ م .

(١٠٢) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٠، مادة ١٠٥١ ، ص٢٥٧ ، بتاريخ ٢ رجب ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م .

(١٠٣) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٤، مادة ٣٤٩ ، ص٩١ ، بتاريخ ١٢ ربيع الأول ٩٩٤ هـ / ١٥٨٦ م .

(١٠٤) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٢٦، مادة ٢٩٨ ، ص١٠٤ ، بتاريخ ٢١ ربيع الأول ١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠ م

(١٠٥) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٢٦، مادة ٢٤٦ ، ص٨٨ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى ١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠ م

(١٠٦) سجلات محكمة أسكندرية الشرعية ، سجل ١٠٢ ، مادة ٨١ ، ص٤٥ ، بتاريخ ١٣ جمادى الثانية ١٢٠١ هـ/ ١٧٨٦ م

(١٠٧) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٥٤، مادة ٢٩١ ، ص١١٩، بتاريخ ١٦ ذى القعدة ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٧م ، محمد فهمى لهيطة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة (القاهرة ، ١٩٣٨) ص٣١.

(١٠٨) أمين عز الدين ، مرجع سابق ، ص٣٢.

(١٠٩) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٩، مادة ٢٨٤ ، ص١٠٤، بتاريخ ٢٠ ربيع الثانى ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨م ، سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٢٦، مادة ١٧٩ ، ص٦٠، بتاريخ ٢ رجب ١٠٠٩هـ / ١٦٠٠م .

(١١٠) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الإشارات ، ص١٦.

(١١١) ليلى عبد اللطيف ، مرجع سابق ، ص ٧٠ .

(١١٢) عبد الحميد حامد سليمان ، مرجع سابق ، ص ١٦٤ .

(١١٣) صلاح هريدى ، الحرف و الصناعات ، ص٤٢ .

(١١٤) أمين عز الدين ، مرجع سابق ، ص٣١.

(١١٥) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٧، مادة ٦٤٠ ، ص١٥٦، بتاريخ ٤ جمادى الثانية ٩٨٣هـ / ١٥٧٥م .

(١١٦) صلاح هريدى ، الحرف والصناعات ، ص٤٢ .

(١١٧) ليلى عبد اللطيف ، مرجع سابق ، ص٧١ .

(١١٨) أحمد الحته ، مرجع سابق ، ص١٢

(١١٩) صلاح هريدى ، الحرف و الصناعات ، ص٤٤.

(١٢٠) أندريه ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، روزاليوسف ، يوليو ١٩٧٤ ، ص ١٦٣ .

(١٢١) السيد رجب حراز ، المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال البريطانى ١٥١٧ - ١٨٨٢ ، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٠ ، ص٤٩ .

(١٢٢) صلاح هريدى ، الحرف والصناعات، ص ص ٤٤ـ ٤٥ .

(١٢٣) أمين عز الدين ، مرجع سابق ، ص ٣١.

(١٢٤) محمد فهمى لهيطة ، مرجع سابق ، ص٣.

(١٢٥) أمين عز الدين ، مرجع سابق ، ص ٣٢.

(١٢٦) صلاح هريدى ، الحرف و الصناعات ، ص٤٥ .

(١٢٧) راشد البراوى ، مرجع سابق ، ص٢٦.

(١٢٨) أحمد الحته ، مرجع سابق ، ص١٢.

(١٢٩) صلاح هريدى ، مرجع سابق ، ص٤٦ .

(١٣٠) ليلى عبد اللطيف ، مرجع سابق ، ص ٧١ ـ ٧٢.

(١٣١) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٢٦، مادة ١٧٩ ، ص ٦٠ ، بتاريخ ٢ رجب ١٠٠٩هـ / ١٦٠٠م ، سجل ٣٠، مادة ٤٥٤ ، ص١٢٠ ، بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م .

(١٣٢) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ٣٩ ، مادة ٤١٨ ، ص ١٢٨ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى ١٠٣١ هـ/١٦٢١م

(١٣٣) اندريه ريمون ، المدن العربية الكبرى فى العصر العثمانى ، ترجمة لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩١ ، ص ٨٤ .

(١٣٤) سجلات محكمة رشيد الشرعية ،سجل ٥١، مادة ١٦٩٦ ، ص ٧٠٨ ، بتاريخ ٦ جمادى الثانية ١٠٧٨هـ / ١٦٦٧م، سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ١٠١ ، مادة ٨٨ ، ص٥٠ ، بتاريخ ٢٠ رجب ١٢٠٧ هـ/ ١٧٩٢ م .

(١٣٥) Jean Coppin , les voyages en egypte 1638-1646, l'institut francais du caire 1971, P.49 .

(١٣٦) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ٤٩ ، مادة ٨٢ ، ص٣٢ ، بتاريخ ١٢ ذى القعدة ١٠٦١ هـ/ ١٦٥٠ م .

(١٣٧) هاملتون جب ، هارولد بووين ، المجتمع الإسلامى و الغربى، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى وأحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ج١، ج٢ ، ص١٣٠، ليلى عبد اللطيف ، مرجع سابق ، ص ٨٨ ـ ٩٠.

(١٣٨) ليلى عبد اللطيف ، مرجع سابق ، ص ٩٣ .

(١٣٩) توفيق الطويل ، التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى (القاهرة ، ١٩٤٦) ص١٤٠.

(١٤٠) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٥٤، مادة ١٩٢ ، ص٧٣، بتاريخ ٢٨ جمادى الأولى ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م .

(١٤١) ادوارد وليم لين ، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم فى القرن التاسع عشر ، ترجمة عدلى طاهر نور (مطبعة الرسالة القاهرة ، ١٩٥٠، ط١) ص١٧٥.

(١٤٢) المرجع السابق ، ص١٧٢ .

(١٤٣) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٥٤، مادة ١٩٣ ، ص٧٣، بتاريخ ٢٨ جمادى الأولى ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م .

(١٤٤) إدوارد وليم لين، مرجع سابق ، ص ١٧٢- ١٧٤.

(١٤٥) ليلى عبد اللطيف ، مرجع سابق ، ص ٧٩ .

(١٤٦) عبد المنعم السيد الراقد، الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٩٧٣ ص ٣٥٤.

(١٤٧) المرجع السابق ، ص٣٤٦.

(١٤٨) السيد رجب حراز ، مرجع سابق ، ص ٣٨-٣٩.

(١٤٩) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(١٥٠) صلاح هريدى ، الحرف و الصناعات ، ص ٤٧.

(١٥١) حسن عثمان ، تاريخ مصر فى العصر العثمانى ١٥١٧-١٧٩٨م ، المجمل فى التاريخ المصرى ، نشر حسن ابراهيم حسن ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، ط١، ١٩٤٢ . ص ٢٧٣.

(١٥٢) السيد رجب حراز، المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ، ص٥٢.

(١٥٣) صلاح هريدى ، الحرف و الصناعات ، ص ٤٨ .

(١٥٤) ابن اياس ، مصدر سابق ، ص ١٨٣ .

(١٥٥) ليلى عبد اللطيف ، مرجع سابق ، ص ١٠٥ .

(١٥٦) صلاح هريدى ، مرجع سابق ، ص ٤٩.

(١٥٧) السيد رجب حراز ، مرجع سابق ، ص ٥٠ .

(١٥٨) اندريه ريمون ، القاهرة العثمانية بوصفها مدينة شئون البلديات ، ص ٢١٦.

(١٥٩) عبد السلام عبد الحليم عامر ، طوائف الحرف فى مصر (١٨٠٥-١٩١٤) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، مصر النهضة ، سنة ١٩٩٣، ص ١٠ .

(١٦٠) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٧٤، مادة ١٧ ، ص١٠، بتاريخ ١٥ ذى القعدة ١٠٧٤هـ / ١٦٦٣م . سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٧، مادة ٣٧٧ ، ص٩٤، بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى ٩٨٢هـ / ١٥٧٥م ، صلاح هريدى ، الحرف و الصناعات ، ص٥٠.

(١٦١) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١١، مادة ٦٦٧ ، ص١٥٣، بتاريخ ٨ ذى الحجة ٩٨٩هـ / ١٥٨١م . . Pierre Belon , Op.Cit, P.99

(١٦٢) ب . س . جيرار ، الحياة الاقتصادية فى مصر ، ص ٢١٠ ، عبد الحميد حامد سليمان ، مرجع سابق ، ص ٣٤٧ .

(١٦٣) صلاح هريدى ، الحرف و الصناعات ، ص ٦٨ ، جولوا ، مرجع سابق ، ص٦٥ ، حسن الباشا ، مدخل إلى الآثار الإسلامية (القاهرة ، ١٩٧٩) ص ٤٤١.

(١٦٤) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٠، مادة ٤١٩، ص١٠٣، بتاريخ ٨ ربيع الأول ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م ، سجل ٨، مادة ٢٧٨، ص٨١، بتاريخ ٢ ربيع الثانى ٩٨٥هـ / ١٥٧٧م ، سجل ١٩٠، مادة ١٦٢، ص١٠٦، بتاريخ ٧ صفر١١٩٦ هـ / ١٧٨١م

(١٦٥) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٥٣ ، مادة ٦ ، ص٣ ، بتاريخ ١٤ ذى القعدة ١١٦١ هـ/ ١٧٤٨م، إدوارد وليم لين ،المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم فى القرن التاسع عشر ، ص ٢٤٠-٢٤١.

(١٦٦) سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ١١، مادة ٣٨٧، ص٨٤ ، بتاريخ ١٦ رمضان٩٨٩ هـ/ ١٥٨١ م ، سجل ٢١ ، مادة ٨٨ ، ص٢٩ ، بتاريخ ٢٩ شعبان ١٠٠٣ هـ/ ١٥٩٤ م .

(١٦٧) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٨٥ ، مادة ٤٨ ، ص٣٤ ، بتاريخ ٢٥ محرم ١٠٨٥ هـ/ ١٦٧٤ م ، سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ١ ، مادة ٢٦ ، ص٥ ، بتاريخ ٢ رمضان ٩٥٧ هـ/ ١٥٥٠ م .

(١٦٨) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٣١ ، مادة ٢٢٥ ، ص١٣ ، بتاريخ ١٥ ربيع الثانى ١١٣٧ هـ/ ١٧٢٤ م ، سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٢١ ، مادة ٥٤ ، ص١٧ ، بتاريخ ٢٤ شعبان ١٠٠٣ هـ/ ١٥٩٤ م ، سجل ٤٥ ، مادة ٥٦ ، ص٢٥ ، بتاريخ ٢٦ جمادى الأولى ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥ م .

(١٦٩) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٢٦ ، مادة ٣٢٤، ص١١٢ ، بتاريخ ٣٠ صفر١٠٠٩ هـ/ ١٦٠٠ م ، سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٩ ، مادة ٤٦٣ ، ص١٢٨ ، بتاريخ ٩ جمادى الأولى ٩٨٦ هـ/ ١٥٧٨ م ، سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ٦٣ ، مادة ٩١ ، ص٥٠ ، بتاريخ ٥ ربيع الثانى ١٠٨٦ هـ/ ١٦٧٥ م.

(١٧٠) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٥٤ ، مادة ٢٩١ ، ص١١٩ ، بتاريخ ١٦ ذى القعدة ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٧م، صلاح هريدى، الحرف والصناعات، ص ٨٣ ، سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ٤٧ ، مادة ١١ ، ص٥ ، بتاريخ ٤ رمضان ١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م .

(١٧١) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٢ ، مادة ٨٠٩ ، ص٢٢٢ ، بتاريخ ١٤ جمادى الأولى ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م.

(١٧٢) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٧٠ ، مادة ٢١ ، ص٢١ ، بتاريخ ٢٢ صفر ١١٧٨هـ/ ١٧٦٤م .

(١٧٣) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٥ ، مادة ١٨ ، ص٢٩ ، بتاريخ ٦ جمادى الأولى ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

(١٧٤) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٠ ، مادة ٣٩٣ ، ص٩٦ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م .

(١٧٥) سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ٧ ، مادة ٢٢٨ ، ص٥٩ ، بتاريخ ٦ جمادى الأولى ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م .

(١٧٦) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٣١ ، مادة ٢٥ ، ص١٣ ، بتاريخ ١٥ ربيع الثانى ١١٣٧هـ/ ١٧٢٤م .

(١٧٧) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٩ ، مادة ٣٠٧ ، ص٨٢ ، بتاريخ ٦ ربيع الثانى ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م .

(١٧٨) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٥ ، مادة ٤٩ ، ص١٣ ، بتاريخ ١٧ ربيع الثانى ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

(١٧٩) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٩ ، مادة ٤٧٦ ، ص١٣٣ ، بتاريخ ١١ جمادى الأولى ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م .

(١٨٠) سجلات محكمة أسكندرية الشرعية ، سجل ١ ، مادة ١٣٠١ ، ص٣٠٢ ، بتاريخ ١٦ ربيع الأول ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م .

(١٨١) سجلات محكمة أسكندرية الشرعية ، سجل ٧٨ ، مادة ٣٥٥ ، ص٢٤٠ ، بتاريخ ٦ شعبان ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م .

(١٨٢) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٥ ، مادة ٧٢٣ ، ص١٣٢ ، بتاريخ ٢٥ صفر ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م .

(١٨٣) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٤ ، مادة ٧٢٢ ، ص١٩١ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى ٩٩٤هـ/ ١٥٨٥م .

(١٨٤) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ٤٧ ، مادة ٦٤٨ ، ص٢٦١ ، بتاريخ ٢ ربيع الأول ١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م .

(١٨٥) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٥٤ ، مادة ٧٨٨ ، ص٢٧٧ ، بتاريخ ١٦ ربيع الأول ١٠٤٨هـ/ ١٦٢٨م، اندريه ريمون، فصول من التاريخ الإجتماعى للقاهرة العثمانية، ص١٥٣ ـ ١٦١ .

(١٨٦) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٩٧ مادة ٢٠٨ ، ص١٢ ، بتاريخ ١٢ جمادى الأولى ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م

(١٨٧) سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ١٣، مادة ٤٩٥، ص١٢١، بتاريخ ١٥ محرم ٩٩٢هـ / ١٥٨٤م .

(١٨٨) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٢٦ ، مادة ١٧٩ ، ص٦٠ ، بتاريخ ٢ رجب ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م .

(١٨٩) Shaw The Financial, P.121-122

(١٩٠) صلاح هريدى ، الحياة الاقتصادية و الاجتماعية فى مدينة رشيد ، ص ٣٣٣ ، على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج١١ ، ص٧٦.

(١٩١) ب ـ س ـ جيرار ، موسوعة الحياة الاقتصادية فى مصر ، ص ٢١٠، عبد الحميد حامد سليمان ، مرجع سابق ، ص ٣٤٣ ، عاصم محمد رزق ، مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٩) سلسلة الألف كتاب (الثانى ٦٨) ص١١٠.

(١٩٢) سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ١٠، مادة ٣٩٢، ص٩٦، بتاريخ ٤ ربيع الأول ٩٨٨هـ /١٥٨٠م . سجل ١٢، مادة ٨٠٥، ص٢٢١، بتاريخ ١٣ جمادى الأولى ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م، سجلات محكمة اسكندرية الشرعية، سجل ١، مادة ٢٤٦، ص٥٥، بتاريخ ٢٨ رمضان ٩٥٧هـ/١٥٥٠م ، عبد الحميد حامد سليمان ، مرجع سابق، ص ٢٤٥ ، Olivier , Op.Cit, Tome 3,P.152 .

(١٩٣) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٦ ، مادة ٢٣٢ ، ص٤٩ ، بتاريخ ١١ جمادى الأولى ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م . سجل ١٤ ، مادة ١٢٧٤ ، ص٢٤٨ ، بتاريخ ٤ شوال ٩٩٤هـ/ ١٥٨٥م ، سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٣ ، مادة ٥٢١، ص١٢٨ ، بتاريخ ٢٢ محرم ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م . Olivier , Op.Cit, P.99

(١٩٤) عبد الحميد حامد سليمان، مرجع سابق، ص ٣٤٩ ، سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٨ ، مادة ٢٤٧ ، ص٧١ ، بتاريخ ٢٥ ربيع الأول ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م ، سجل ١٥ ، مادة ٨٥٥ ، ص١٥٣، بتاريخ ٢ ربيع الثانى ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م . سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ٣٠ ، مادة ٧٢٢ ، ص١٨٣ ، بتاريخ ١٦ ربيع الثانى ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م ، سجل ١٩٨، مادة ٧٠ ، ص٣٧ ، بتاريخ ١٣ رجب ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م . سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ٨ ، مادة ٢٤٧، ص٧١ ، بتاريخ ٢٥ ربيع الأول ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م ، سجل ١٦ ، مادة ٧٥٩ ، ص٢٤٤ ، بتاريخ ٢١ ربيع الثانى ٩٩٦هـ/ ١٥٨٧م .

(١٩٥) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٠ ، مادة ١٩٧٠ ، ص٤٧٩ ، بتاريخ ٢١ ربيع الثانى ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م ، سجل ١٩٨ ، مادة ٢٥٠ ، ص١١٧ ، بتاريخ ٥ ذي الحجة ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣م ، سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٥٨ ، مادة ١٥٩٦ ، ص٤٦١، بتاريخ ٨ صفر ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م .

(١٩٦) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٢٦ ، مادة ٥٠ ، ص١٥، بتاريخ ٢ رجب ١٠٠٩ هـ/ ١٦٠٠ م ، سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ٢٦، مادة ٣٢٤، ص١١٢، بتاريخ ٣٠ صفر ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م . سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٢٦ ، مادة ٤٩ ، ص١٤، بتاريخ ٢ رجب ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م ، سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٠ ، مادة ٢١ ، ص٨ ، بتاريخ ٢٠ ذى الحجة ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م .

(١٩٧) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٧ ، مادة ٢٠٢ ، ص٥٤ ، بتاريخ ٣ جمادى الأولى ٩٨٣ هـ/ ١٥٧٥ م ، سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٧٠ ، مادة ١٥ ، ص١٤ ، بتاريخ ١ ذى الحجة ١١٧٦ هـ/ ١٧٦٢ م ، ب. س. جيرار ، موسوعة الحياة الاقتصادية فى مصر ، ص ١٧١.

(١٩٨) البكسماط ، يعرف ضمن الوثائق الرسمية باسم «البكسماط الناشف الوزن المعتاد التسليم» و قد جرت العادة على قيام جماعة الطحّانين بثغر رشيد بتجهيز البكسماط اللازم للدونمة الشريفة السلطانية ، و كان يتم توزيع القمح اللازم لعمل البكسماط الوارد من الشون السلطانية عليهم فى دفتر خاص يُسجل ضمن سجلات المحكمة الشرعية و يشهد فيه الطحّانون على أنفسهم : «أن عليهم القيام بخدمة ذلك من طحين و خبز وما يحتاج إليه من عمله بكسماط على جارى العادة القديمة المستمرة وهم متضامنون فى ذلك و متكافلون فى الخدمة و المال» سجلات محكمة اسكندرية الشرعية سجل ٢٠، مادة ٣٣٧، ص١٢٦، بتاريخ ١٥ ذي الحجة ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م، سجل ٤٨ ، مادة ١٢٣٩ ، ص٥١٤ ، بتاريخ ٢ شعبان ١٠٥٣ هـ/ ١٦٤٣ م .

(١٩٩) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٠ ، مادة ١٦٦١ ، ص٤٠٠ ، بتاريخ ١١ شوال ٩٨٨ هـ/ ١٥٨٠ م .

(٢٠٠) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ٢٥ ، مادة ١١٥٧ ، ص٣٧١، بتاريخ ٢٩ رجب ٩٩٩ هـ/ ١٥٩٠ م ، سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ١ ، مادة ١٤٢٧ ، ص٣٣٧ ، بتاريخ ١٥ ربيع الثانى ٩٥٨ هـ/ ١٥٥١ م .

(٢٠١) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١ ، مادة ١١٥ ، ص ٥٨ ، بتاريخ ٢ محرم ٩٥٦هـ / ١٥٤٩م . سجل ١٤، مادة ١٠٧٧، ص٢٩٣، بتاريخ ٣ ذى القعدة ٩٩٤هـ/ ١٥٨٥م، سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ١٠، مادة ٩٨٣، ص٢٤٤، بتاريخ ٢٢جمادى الثانية ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م . سجل ٢٦، مادة ٤٠٥، ص١٣٥، بتاريخ ١ محرم ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م ، سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٥٤ ، مادة ٧٨٨ ، ص٢٧٧ ، بتاريخ ١٦ ربيع الأول ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م ، عاصم محمد رزق ، مرجع سابق ، ص ١١٦

Pierre Belon , Op.Cit, P.97 Andre Thevet,Voyage en Egypte 1549- 1552 (L'institut français D'archeologie orientale du caire,1984) P.87.

(٢٠٢) ابن أبى السرور البكرى، الكواكب السائرة فى أخبار مصر و القاهرة، نسخة مصورة بمكتبة كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية تحت رقم ٢٧٩٤ تاريخ عن النسخة المحفوظة بدار الكتب تحت رقم ٢١١٢ الخزانة التيمورية ورقة ٤ ، ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج٥، ص١٨٨ .

(٢٠٣) السيد رجب حراز ، مرجع سابق ، ص ٥٢ .

(٢٠٤) صلاح هريدى ، الحرف و الصناعات ، ص ١٠٣ .

(٢٠٥) السيد رجب حراز ، مرجع سابق ، ص ٥٣.

(٢٠٦) عبد المنعم السيد الراقد ، مرجع سابق ، ص ٣٥٤.

(٢٠٧) عبد السلام عبد الحليم عامر ، مرجع سابق ، ص ٩١ .

(٢٠٨) محمود أحمد درويش ، المنشآت التجارية و الصناعية برشيد فى العصر العثمانى (المحلة الكبرى ، ١٩٩٤ ، ط١) ص٥٥، سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٩ ، مادة ٢٥٠ ، ص٦١ ، بتاريخ ٧ صفر٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م ، سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٩٨، مادة ٥٢، ص٣٠، بتاريخ ١٥ صفر١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م ، سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٦ ، مادة ٣٢٩، ص١٠٥، بتاريخ ١٨ صفر٩٩٦هـ/ ١٥٨٧م ، سجل٩ ، مادة ٢٥٠ ، ص٦١ ، بتاريخ ٧ صفر ٩٨٨ هـ/ ١٥٨٠ م .

(٢٠٩) Shaw , Ottoman Egypt in the age of the french revolution, P.19.

سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٠٦ ، مادة ٨٣ ، ص٥٧ ، بتاريخ ٢٨ ذى الحجة ١١١٠ هـ/ ١٦٩٨م . سجل ١١٥، مادة ١٧٣ ، ص١٠٥، بتاريخ ١٢ شوال ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م، سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٤٥ ، مادة ٥٠ ، ص٢٢ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى ١٠٣٥ هـ/ ١٦٢٥ م ، ب. س. جيرار ، موسوعة الحياة الاقتصادية فى مصر ، ص ٥٨، سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١١٥ ، مادة ١٧٣ ، ص١٠٥ ، بتاريخ ١٢ شوال ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م ، سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ٤٥، مادة ٥١ ، ص٢٣ ، بتاريخ ١ جمادى الثانية ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م ، سجل ١٩٨، مادة ١٦، ص١٠، بتاريخ ١٠ محرم ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣م .

(٢١٠) سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ٥٤، مادة١٥٥، ص٦٨، بتاريخ ٢٠ رجب ١٠٤هـ/ ٦٣٧م، سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ٧، مادة ١٨٣، ص٥٠، بتاريخ ٢٩ ربيع الثانى ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م، سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ١٠، مادة١٩٧٠، ص٤٧٩، بتاريخ ٢١ ربيع الثانى ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م، سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ١٩٨، مادة ٢٨٢، ص١٣٠، بتاريخ ١٩ صفر ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م ، سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ٥٤ ، مادة٢٤٢ ، ص٩٧، بتاريخ ٩ شعبان ١٠٤٧ هـ/ ١٦٣٧ م .

(٢١١) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٥٣ ، مادة ١٤٠ ، ص١٢٧ ، بتاريخ ٣ ذى الحجة ١١٦١هـ/ ١٧٤٨م. سجلات محكمة أسكندرية الشرعية، سجل ٤٨، مادة ٣٢٠، ص١٢١، بتاريخ ٩ شعبان ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م ، عبد الحميد حامد سليمان ، مرجع سابق، ص ٣٤٩ .

(٢١٢) سجلات محكمة أسكندرية الشرعية ، سجل ٤٠ ، مادة ٩٦٤ ، ص٢٧٠ ، بتاريخ ٢١ ذى القعدة ١٠٣٢ هـ/ ١٦٢٣ م ، على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج١١ ، ص٧٥.

(٢١٣) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٥٤ ، مادة ٥٥٦ ، ص٢٠٥ ، بتاريخ ٣ ربيع الثانى ١٠٤٨ هـ/ ١٦٣٨ م ، ب. س. جيرار ، موسوعة الحياة الإقتصادية فى مصر ، ص ٢٠٧، محمود درويش ، مرجع سابق ، ص ٧٧- ٧٨ .

(٢١٤) إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ،القاهرة ، ج١ ، ج٢ ، د.ت ، ص ٨٠.

(٢١٥) Shaw , Ottoman Egypt in the age of the french revolution, P.143.

(٢١٦) Jean. M . Carre, Voyageurs et Ecrivans Français en Egypte, P.17.

(٢١٧) سجلات محكمة أسكندرية الشرعية، سجل ١١، مادة ٩٦، ص٣٩، بتاريخ ٢ ربيع الأول ٩٧٨هـ/١٥٧٠م ، عبد الرحيم عبد الرحمن، دور المغاربة فى مصر فى العصر الحديث، ص٥١.

(٢١٨) صلاح هريدى ، الحياة الاقتصادية و الاجتماعية فى مدينة رشيد ، ص ٣٣٤ .

(٢١٩) Smailes. A.R, The Geography of the Towns (London, 1968)P.15.

(٢٢٠) عبد الحميد حامد سليمان ، مرجع سابق ، ص ٣١٨ .

(٢٢١) سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ١٥، مادة ٩٧١، ص١٧٣، بتاريخ ٢٦ ربيع الثانى ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م .

(٢٢٢) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٩ ، مادة ٣٧٤ ، ص١٠١ ، بتاريخ ١٨ ربيع الثانى ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م .

(٢٢٣) عبد الحميد حامد سليمان ، مرجع سابق ، ص ٣٢٥.

(٢٢٤) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ١٦ ، مادة ١٠٤٨ ، ص٢٨٣ ، بتاريخ ٢ ربيع الأول ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م .

(٢٢٥) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٤ ، مادة ٥٩١ ، ص١٥٨ ، بتاريخ ٢ جمادى الأولى ٩٩٤هـ/ ١٥٨٥م .

٢٢) سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ١، مادة ٢٨٨، ص١٥٨، بتاريخ ١٢ صفر ٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م .

(٢٢٧) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية، سجل ٦٣، مادة ٩١، ص٥٠، بتاريخ ٥ ربيع الثانى ١٠٨٦هـ/ ١٦٧٥م .

(٢٢٨) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ١٦ ، مادة ١٠٤٨ ، ص٢٨٣ ، بتاريخ ٢ ربيع الأول ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م

(٢٢٩) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ١٨ ، مادة ٦٩٨ ، ص٢٣٦ ، بتاريخ ١٩ جمادى الأولى ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م

(٢٣٠) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٩ ، مادة ٣٧٥، ص١٠١ ، بتاريخ ١٨ ربيع الثانى ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م .

(٢٣١) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٥ ، مادة ٩٧١، ص١٧٣ ، بتاريخ ٢٦ ربيع الثانى ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م .

(٢٣٢) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ٨ ، مادة ٥١٥، ص١٧٧، بتاريخ ١١ جمادى الثانية ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م

(٢٣٣) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ٤٥ ، مادة ٤١٧ ، ص١٧٤ ، بتاريخ ١٠ جمادى الثانية ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م

(٢٣٤) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ٦٢ ، مادة ١٦٧ ، ص٧٣ ، بتاريخ ٢٩ ربيع الأول ١١١٧هـ/ ١٧٠٥م .

(٢٣٥) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٣، مادة ٤٥٩، ص١١١، بتاريخ ١١ محرم ٩٩٢هـ/١٥٨٤م .

(٢٣٦) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ١١ ، مادة ٨٤٩ ، ص٢١٣ ، بتاريخ ٢ شعبان ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

(٢٣٧) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٦ ، مادة ٤٩٢، ص١٥٣ ، بتاريخ ١٨ ربيع الأول ٩٩٦هـ/ ١٥٨٧م .

(٢٣٨) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ٧٨ ، مادة ٣٥٥ ، ص٢٤٠ ، بتاريخ ٦ شعبان ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م .

(٢٣٩) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٥٨ ، مادة ١٨٠٩ ، ص٥٠٤ ، بتاريخ ١٨ ربيع الأول ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م

(٢٤٠) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٨٥ ، مادة ١٤٥ ، ص١١٩ ، بتاريخ ٢٧ صفر ١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م .

(٢٤١) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٧٠ ، مادة ٢٩ ، ص٢٩ ، بتاريخ ٢٨ ذيالحجة ١١١٧هـ/ ١٧٠٥م .

(٢٤٢) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٩ ، مادة ٤٦٣، ص١٢٨ ، بتاريخ ٩ جمادى الأولى ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م .

(٢٤٣) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ٦٦ ، مادة ١٩٤ ، ص١٣٢ ، بتاريخ ٢٨ رجب ١١٣٢هـ/ ١٧١٩م .

(٢٤٤) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية، سجل ٢، مادة ٨٨٢، ص٢٦٨، بتاريخ ١٥ ذى القعدة ٩٦١هـ/١٥٥٢م ، سجل ٩٣، مادة٢٦، ص١٦، بتاريخ ٣ ربيع الأول ١١٨٥هـ/١٧٧١م.

(٢٤٥) سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ١٣، مادة ٤٥٩، ص١١١، بتاريخ ١١ محرم ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م ، سجل ١٦، مادة٣٨٠، ص١٢٠، بتاريخ ٢ ربيع الأول ٩٩٦هـ/ ١٥٨٧م .

(٢٤٦) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٥ ، مادة ١٥٤٤ ، ص٢٧٣ ، بتاريخ ٩ شعبان ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م .

(٢٤٧) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ١ ، مادة ١٤٤٤ ، ص٢٤١ ، بتاريخ ٨ ربيع الثانى ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م .

(٢٤٨) سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ١٥٣، مادة ١٧، ص١٧، بتاريخ ٢٠ ذى الحجة ١١٦١هـ/ ١٧٤٨م .

(٢٤٩) شاه بندر، هى كلمة فارسية تعنى رئيس التجار أو كبير التجار أو صاحب الوكالة، رفعت موسى محمد، الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ، ط١، ١٩٩٣، ص ١٠٥.

(٢٥٠) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٦، مادة ٢٧٨ ، ص٨٥ ، بتاريخ ١١ صفر ٩٩٦هـ/ ١٥٨٧م .

(٢٥١) عبد الرحيم عبد الرحمن ، نشوء الرأسمالية المصرية و أثرها على الحياة الإقتصادية ، مقالة فى فصول من تاريخ مصر الإقتصادى و الإجتماعى فى العصر العثمانى (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠) ص٦١.

(٢٥٢) عبد الرحيم عبد الرحمن ، العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية بين الولايات العربية إبان العصر العثمانى ، ص٤٠١.

(٢٥٣) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية، سجل ١١، مادة ١٥٢٤، ص٣٨٠، بتاريخ ٢٨ ربيع الأول ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م.

(٢٥٤) الكارمية ، تنسب تجارة الكارم إلى الكارمية و هم فئة من كبار التجار اشتغلوا باحتكار تجارة الهند و الشرق الأقصى فى التوابل و ما إليها من السلع الأخرى ، و كان مركز نشاطهم الأول فى المحيط الهندى (عطية القوصى ، أضواء جديدة على تجارة الكارم ، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٢٢، سنة ١٩٧٥، ص ١٧) ، سجلات محكمة اسكندرية الشرعية، سجل ٣٢، مادة ٨٥٦، ص٣١٣، بتاريخ ١٩ جمادى الأولى ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م ، سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ١ ، مادة ١٤٤٤ ، ص٣٤١ ، بتاريخ ١٨ ربيع الثانى ٩٥٨ هـ/ ١٥٥١ م .

(٢٥٥) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١١٥ ، مادة ٣٩٠ ، ص٢٤٧ ، بتاريخ ١١ محرم ١١٢٦هـ/ ١٧١٤م ، سجلات محكمة اسكندرية الشرعية، سجل ٣٩، مادة ١٩٩، ص٥١، بتاريخ ١٩ جمادى الأولى ١٠٣٠هـ/ ١٦٢٠م

(٢٥٦) عبد الحميد حامد سليمان ، مرجع سابق ، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

(٢٥٧) عبد الله محمد عزباوى، الشوام فى مصر، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٦ص ٢٨٥.

(٢٥٨) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٩٨ ، مادة ٢٥٠ ، ص١١٧ ، بتاريخ ٥ ذى الحجة ١٢٠٨ هـ/ ١٧٩٣ م ، عبد الله محمد عزباوى ، مرجع سابق ، ص ٢٨٩، سجلات محكمة اسكندرية الشرعية، سجل ٦٤، مادة ٥٦٧، ص٣١٥، بتاريخ ٢٨ صفر ١١٢٩هـ/ ١٧١٦م .

(٢٥٩) استيف، النظام المالى و الإدارى فى مصر العثمانية، ص١٢٠، عبد الحميد حامد سليمان ، مرجع سابق ، ص ١٩٤ـ ١٩٥.

(٢٦٠) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ٤ ، مادة١٣٨٨ ، ص٢٥٨ ، بتاريخ ٢ رجب ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م . سجل ٨، مادة ٥١٥، ص١٧٧، بتاريخ ١١ جمادى الثانية ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م، . سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٧ ، مادة ٤٥ ، ص١٢ ، بتاريخ ٤ ربيع الثانى ٩٧٣ هـ/ ١٥٦٥ م ، سجل ٥، مادة٧١، ص١٨، بتاريخ ٢٢ ربيع الثانى ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

(٢٦١) عبد المنعم السيد الراقد ، مرجع سابق ، ص ٣٦١.

(٢٦٢) استيف ، النظام المالى و الإدارى ، ص١٦٦.

(٢٦٣) يوسف أصاف، المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية ، المطبعة العمومية بمصر، ١٨٩٦، ص ٦٩، مادة ٣٤،٣٠ من معاهدة سنة ١٦٠٦ مع إنجلترا

(٢٦٤) Paul Lucas, Op.Cit, P.185 .

(٢٦٥) ليلى الصباغ ، الجاليات الأجنبية فى بلاد الشام فى العهد العثمانى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بيروت . ط١. ١٩٨٩. ص ٨٩ ـ ٩٠

(٢٦٦) سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٣ ، مادة ٣٦٤ ، ص٨٥ ، بتاريخ ١٩ ذيالحجة ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م ، سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجل ٧٨ ، مادة ١١٦، ص٨٨، بتاريخ ٢٢ ذي الحجة ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م ، سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ١١، مادة ٧٢٥، ص١٧٧، بتاريخ غرة جمادى الأولى ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م ، سجلات محكمة رشيد الشرعية، سجل ٢١، مادة ١٨٤، ص٥٥، بتاريخ ١٥ رمضان ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م ، سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ١٤، مادة ٣٤٩، ص٩١، بتاريخ ١٢ ربيع الأول ٩٩٤هـ/١٥٨٥م . سجلات محكمة رشيد الشرعية ، سجل ٧٤ ، مادة٨١ ، ص٤٣ ، بتاريخ ٧ ذى الحجة ١٠٧٤هـ/ ١٦٦٣م .

(٢٦٧) عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد على ، ج٣ ، ص ٦٤ .

(٢٦٨) المرجع السابق ص ٦٤-٦٥ ، محمد محمود السروجى، مرجع سابق ، ص ٦٠-٦١ .

(٢٦٩) محمد محمود السروجى ، مرجع سابق ، ص ٦٠- ١٦.

(٢٧٠) عبد الرحمن الجبرتى ، مصدر سابق ، ص ٧٦-٧٩ .

مجتمع رشيد
فى القرن التاسع عشر

قراءة فى كتاب المشير عبد الله دقنة
(مفاكهة المريد فى الإخبار عن رشيد.)

د. محمد حافظ دياب

كيف السبيل الى مقاربة مدينة ، على صيغة من شغف انسانى ؟

ذلك أن هذه المقاربة جواب لمغامرة جسد ، واكتناز روح ، وسبر حقيقة ، وهى ، استتباعًا، طلب علم واكتساب فوائد وكمال ، لو شئنا اللياذ بابن خلدون ·

المقاربة هنا حركة فى المكان، وتوقف فيه وأمامه، وإنصات إلى وشوشاته وهمهماته، وتعّرف على طبائع ناسه وامزجتهم وعاداتهم ، وهو ما نجده فى كتاب المشير عبد الله دقنه (مفاكهة المريد فى الإخبار عن رشيد).

عمل صاحبه قائداً فى الثورة المهدية بالسودان ، والتى قامت منتصف ثمانينات القرن التاسع عشر ، ونفاه الانجليز -ومعه الأمير محمود شيخ الدين، بعد انكسار الثورة- إلى رشيد، وظل بها حتى مات ودفن هناك ·

إشكالية التجنيس :

نبدأ بالنظر الى حيثيات تأليفه هذا الكتاب، وهى حيثيات تبدو عصّية كالبدايات، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالخطوة الأولى فى إنتاج المعنى، فهى فى هذه الحال لا تُكتشف بل تتخلق وتُصاغ وتتفاعل وتتطور ، وفق جدل العلاقة بين معرفة صاحبها التراثية ، وحدوده الثقافية ، وما تجود به مخيلته[1]·

ودقنه هنا ، كنظرائه من المؤرخين والرحالة العرب القدامى ، يفتتح كتابه بحمد الله والثناء على نبيه الكريم : «أحمد من اختار من هذه الأمة خزنة لأسراره ، وأقامهم كاشفين لما أودعه فى فرقانه وأحاديث نبيه من أنواره ، وأظهر لهم بمعالم آياته غوامض الحقائق · فبدت تجاههم المقاصد بما مهد لهم من الطرائق ، وأصلى وأسلم على صاحب الفيوضات الربانية ، والمعارف اللدنية الصمدانية الرحمانية ، سيدنا محمد المخصوص بجوامع الكلم ، وعلى آله وصحبه الذين استخرجوا الدر المنثور من علمه العمم» [2]·

بعدها يفصح عن موجبات تأليفه هذا الكتاب وموجهات ولادته وتدابيرها: فإنى لما أجلت بفكرى فى ذلك الوضع الذى لا حساب لى فيه ، وتلك الحياة التى أبعدتنى عن أهلى وإخوانى ، فكرت أن أشغل نفسى فى تلك الأيام الشداد التى أعيش شتيتيها :

شتيت الغربة ، وشتيت الوحدة ، فعزمت بعد التوكل على البارى ، أن أعمل محرراً حول قطر رشيد ، آتى فيه على أخباره وتاريخه وأحداثه وطبائع أهلة خلال المائة سنة المنصرمة ، قد يكون فيه شيئ من النفع لمن يجيء بعدى، وعلى الله قصد السبيل[٣].

الشرط الأساسى اذن للكتابة لدى «الفقير إلى ربه عز شأنه عبد الله دقنه» كما كانت تحلو له التسمية، أن يبتغى بهذا العمل مرضاة الله، ويفتكّ من إسار الغرض، أى غرض، ما يشى بأن دقنة هنا ليس كالإدريسى ، الذى قدم نصه (نزهة المشتاق) بناء على أوامر روجر الثانى ملك صقلية.

والشرط الثانى هو المعايشة ، والتى لا يكفيها لديه مجرد الاقامة بين ظهرانى أهل رشيد ، بل لا بد من التواصل معهم، والتعرف على «دخائلهم» إذْ لا سبيل إلى التحقق من أخبار هذا القطر وأحداثه، وتجنب مغالطها إلا بأن يُسْخن المراقب عينه، ويطيل بثه، مدققا المشاهدة مشاركاً فى الملاحظة»[٤]

أما الشرط الثالث ، فيتهيأ له بجمع جلّ ما صدر من رشيد فى كتب التراث والرحلات العربية (ابن عبد الحكم ، اليعقوبى، المقريزى، الطرطوشى، الإدريسى ، الجبرتى ...)، حيث «السير فى نهج من سبق يفتح الأفق ويقوّى الهمة»[٥].

على أنه ، ورغم وضوح مقصد دقنة وجلاء نيّته، فثم حالة من الالتباس والتجنيس تتعلق بعمله، ما قد يوقعنا فى حيرة تعيين شكله الإبداعى. فالتجنيس، بحدّ ذاته، عملية اختزال ، إضافة إلى افتراضه قابلية الأجناس المقارنة للمطاوعة[٦]، وهنا يكاد الظن أن يدرج هذا العمل ضمن أحد فنّين صاغتهما الحضارة العربية : أدب الرحلة ، وهو قطاع ثقافى يرتبط بالرحلة والتعبير عنها وأنواعها ومضمونها وأبعادها، وإن تميز بصيغته الأسلوبية ، وإعماله الخيال فى واقع الرحلة المعاش .

أما الفن الآخر، فهو الأدب الجغرافى ، ويجمع بين الجغرافيا والأدب، بين مشاكلة الواقع وبلاغة التعبير عن جمالياته، وهو ماحدا بالرحّالة المسلمين أن يمنحوه امتيازاً خاصاً .

ويشدد المستعرب الفرنسى أندريه ميكل A. Miquel على الحمولة البلاغية المتواترة فى الأدب الجغرافى الإسلامى ، حين أعاد قراءة نصوصه، مستهدفًا بذلك التعرف على ما تنفرد به الثقافة العربية الإسلامية فى القرون الوسطى من أشكال أساسية .

يقول ميكل : لماذا لا أسْبر غوْر هذه المصنفات فى أعماقها؟ ولماذا أعزف عن محاولة استخلاص الواقع التاريخى الموضوعى وانتزاعه منها ؟ فأتناول نصوصا بتمامها، وأعتبرها لا مجرد شواهد على واقع حال، بل على تمثيل هذا الواقع، مبتغيًا، بما قلّ من كلام لا إبراز عالم يبدعه استقصاء يتم بعد مضى ألف عام ، بل إحياء عالم يحتمل أن تكون ضمائر البشر آنذاك قد أحسّت به ، وأدركته وتخيّلته(٧).

هل يبدو عمل دقنة ضمن أحد هذين الفنّين؟ أم أن له «قرونًا» أخرى يجدر الإمساك بها؟ إذْ لعله يتعين النظر إلى هذا العمل كشكل تعبيرى مميز ، يتجاوز عتبة البحث المرصود لتحديد جنسيته ونوعيته، انطلاقاً من اختراقه الصفاء النوعى للحقول المعرفية والأجناس التعبيرية المستقرة، ومن وقوفه على تخوم الحساسيات الإبداعية، كمنطقة تنافذ معقد، تجمع بين طيّاتها بنية نصّية شمّالة ، تحوى بمنظورنا المعاصر كلا من الإثنوجرافيا والتاريخ والرواية ، فيما تؤازر كل منها تقنيات بعينها تومئ إلى مرجعيتها ، فتؤسس لنسيج هذا العمل وتشى بهويته(٨).

● غواية اللغة:

والناظر فى كتاب دقنة يسترعى انتباهه تقاربه مع لغة ميّسرة، تمزج بين الفصحى والعامية ولغة «الخلاوى» السودانية .

انها غواية اللغة حين تفتح نفسها على المتلقى، فتسمح للذين كابدوا سلطتها أن يكتشفوا لغتهم فيها وعبرها، من حيث قدرة هذا النص على تعميق المشاركة الوجدانية مع متلقيه.

لنترك النظر ، ابتداءً، يستقر على العنوان : مفاكهة المريد فى الإخبار عن رشيد، إعتباراً من أن العنوان هو بمثابة عتبة المدوّنة على ما يقول رولان بارث R.Barthes ، ومفتاح أساسى يتسلح به القارئ للولوج الى أغوار النص العميقة، قصد استنطاقها وتأويلها(٩).

والعنوان يبادهنا بقياس وزنى متساو فى مقطعيه ، مع عمل قديم لشمس الدين محمد بن طولون (مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان) ، أرّخ فيه لمصر والشام، واعتمد نظام السنين ثم الشهور على نسق تفصيلى (١٠).

وتبدو أهمية التشجيع هنا، من كون أن التموجات النظمية التى يولدها تتصل بتقاليد تنحدر متوارثة من المدونة العربية التقليدية بعامة ، وما يتصل بأدب الرحلات فيها بالأخص، من احتفاء بإيقاعية اللغة ، كوسيلة مساعدة للدخول إلى استيعاب المدوّنة وفك رموزها وسْبر أغوارها(١١).

على أن غواية اللغة فى هذا العمل لا تقتصر على العنوان ، بل تمتد لتشمل تسجيل ما يدوّن على شواهد القبور، أو ما يأتى على لسان مسّحراتى رمضان .

من شواهد القبور ، ينقل دقنة ما كتب على مقبرة اسماعيل المحلى:

«قف بالضريح وأرسل العَبَرات
واضرع لمولى العرش بالدعوات
واسأله رحمته تدور على الذى
كان احتسابًا فاعل الخيرات
وقل السلام عليه منّا دائمًا
ولك المهيمن ضاعفَ الحسنات
لما قَدِمت عليه فزت بعفوه
ولديه كنت بأرفع الدرجات
ومن الملائك حسبما قد أرّخوا
نوديت إسماعيل بالجنّات .....(١٢)

ولا يفوت دقنة لحّظ عبارة مدونة على لوح رخامى فوق أحد الأسبلة : «مرحوم ومغفور له المحتاج الى رحمة ربه المغفور الحاج إبراهيم بلطيش ١١٦٨ هجرية الفاتحة» ويسجل نداء المسحراتى :

«صلاتى وتسليمى على من نطق بكفّه الحصى
والضبّ سلمّ وقال أجرنى فأجاره خاتم الأنبياء
فى الصخر غاص المصطفى بالبعال
صلاتى وتسليمى عليه كل يوم وفى كل ساعة ما هبّ ريح
منى عليه السلام طول الدوام
كلما طال الموقف وطال الضجيج
وخص المصطفى بالسلام
ياناثمين قوموا للصلاة ....»[١٣]

ومع هذه النصوص ومثيلاتها يلفت الانتباه فى هذا العمل إيراد صاحبه لمصطلحات خلدونية (الشوكة، العصبية، المعاش، طبائع العمران، التمدين، الصنائع، الإسراف والتبذير، القنوع والمسالمة ، الفراغ والدّعة، الملكة اللسانية، العجمة، العوارض، الحاجى، الجبلة ، العلل ، المغالط ....)، لدرجة يمكن معها القول إن مقدمة ابن خلدون مثّلت إحدى مصادر معجمه وإحالاته[١٤].

• **جماليات المكان**

ولدى دقنة، تعدّ رشيد : «درة يتيمة منيفة ، لا يعادلها فى جمالها إلا الجزيرة أبا السودانية»[١٥].

ويبدو أن مقارنته بهذه الجزيرة صادر عن كونها مسقط رأس محمد أحمد زعيم الثورة المهدية ، والتى تقع بين مدينتى «ربك» و«كوستى» فى منطقة وسط السودان.

حسبما يورد جيرار برنس: G. Prince «يحتل المكان دورًا بارزًا فى النص، أو يشغل حيزًا ثانويًا فيه. إذ قد يكون حركياً فعالاً أو سكونيًا ثابتًا، وقد يبدو متناسقًا أو غير متناسق، واضح المعالم أو غامضاً، مقدمًا بشكل عفوى غير مرتقب أو متناثرة جزئياته على مساحة النص»[١٦]. وبالرغم من أن محاولة للتمييز قد لا تتجلى بوضوح بين الأساليب التى استلهم بها دقنة الأمكنة فى رشيد ، إلا أن ملامح بعينها يمكن أن تومئ الى هذا التمييز، تتصاعد إبداعيتها عبر مستويات أو أساليب ثلاثية:

أولها ، الاكتفاء بتحديد الحيّز الإيكولوجى ، بإيراد وصف طوبوغرافى للمكان، يقوم على استقصاء عناصره كعلامات أيقونية ، وإضاءة الحياة الجيّاشة للأشياء المكّونة له ، وتناقل الوقائع حوله، وهو ما يتضح فى وصفه لتل «أبو النظر» المشهور بتل «أبو مندور» : هو ربوة مرتفعة تنام فوق رمالها ، وتُعد من أروع الأماكن الموجودة فى قطر رشيد ، حيث يحتضن نهر النيل فى مشهد يبعث فى النفوس الجمال مع الجلال ، والطباع مجبولة على الأنس بهاتين الخصلتين ، لما يحويه هذا التل من كثبان عالية مبسوطة ورمال ناعمة تخال للعينين كاللؤلؤ . ويتبدى هذا الجمال والجلال كأعظم ما يكون مع مشهد قيام أهالى قرى البر الشرقى للنيل : الملاوح ، واليسرى ، والوقف ، والعرضة ، بنقل موتاهم فى القوارب الى البر الآخر برشيد ، حيث يتم دفنهم فى المقابر المقامة على التل ، تيمنًا بعادة الفراعنة القدامى فى نقل موتاهم إلى الضفة الغربية من النيل(١٧).

إنه بهاء التحديق فى تفاصيل المكان ، حين يورد دقنة ترائية له فى سلسلة بصرية متتالية ، تلتقط الصور المرئية التى تعمره ، إيقاظاً للحواس ، وإشعالاً للرغبة الماسة فى تعيين الأشياء ، وإدراك تفاصيلها .

اما ثانى الأساليب التى يستخدمها دقنة فى استلهام المكان ، فيظهر كعلامة مؤشرية تقوم على المزج الدرامى بين المكان والانطباع الذى يخلفه فى نفسه. فهو حين يتحدث عن «حارة الجبانة» التى تتواجد بها أقدم مدافن رشيد يستذكر الموت، وما فعله فى الأحبّة والصّحْب. فالموت ضجعة فى انتظار النشور، غير أن هذه الضجعة تختلف من كائن لآخر فهى الضجعة المطمئنة الهادئة لمن عمل صالحًا، وهى ضجعة مزحومة بالعذاب فى انتظار عذاب أشد يوم الحساب لمن ارتكب آثاما فى حياته، حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم(١٨).

ويظهر الأسلوب الثالث لاستلهام المكان فى تصعيد وصفه إلى مستوى العلاقة الرمزية، المسيّجة بحركة ملحمية تعكس أحساس دقنة بالشوق الدفين إلى مسقط رأسه فى السودان ، وهو ما يتضح فى وصفه للنيل، الذى يختلط فيه وقوفه قبالته فى رشيد

أو الجزيرة أبا: فقد استوهب الرحمن أهل مصر والسودان هذا النيل ، على هيئة من نزهة العين تسر الناظرين، وخيراً وبركة لواردية هنا وهنالك ، وإن كنا لن نغفل عفاءه وهيجانه أمام الجزيرة أبا ، وهدوءه وتوقفه فى رشيد ... ولله درّ من قال :

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدًا لأول منزل [١٩]

هنا يتحول النيل إلى علاقة رمزية كلية ، يرتفع منها صوت المخاطبة ولوعة الافتتان وغواية الشجن . ولا تتوقف هذه العلاقة عن قدرتها على العطاء فيما تحمل معنى الحضن والمسافة وفراق الأحبة ووجع البعاد تنهى المعنى المباشر للوطن ،ليضحى حاجة ملحة. إنها تنهى ضرورته لتحل حريته.

● **العمران :**

ولدى دقنة ، تتميّز رشيد بأمور خمسة : اقتران النيل بالبحر المالح ، كثرة الآثار الإسلامية، زواج زبيدة الرشيدية من الفرنسى مينو قائد الحملة الفرنسية واكتشاف حجر رشيد ، وإن بدا له هذا الأمر الأخير غير صحيح ، حين يذكر أن العالم العربى «ابن وحشية النبطى» سبق شمبليون فى فك رموزه[٢٠].

لكن سؤال دقنة عن عمران المدينة لم يتوقف عند هذه الأمور ، فما استرعى انتباهه كان تراوح تاريخها بين الاهتمام والإهمال ، من سوق تجارية رائجة أيام اليونان منذ العصر الفرعونى، إلى أحد المراكز الدينية المهمة فى العصر البيزنطى، ليتقلص عمرانها بعد الفتح الإسلامى مع تحولها إلى ضيعة يملكها «الليث بن سعد»، ثم استعادة أهميتها أواخر عصر المماليك، وازدياد أهميتها بعد مجىء العثمانيين كأهم الثغور، لتتدهور بعد حفر ترعة المحمودية عام ١٨١٩، وتحوّل الملاحة الى مدينة الإسكندرية[٢١].

ويلاحظ دقنة أن الوثائق التى تتصل بهذه المدينة تختلف فى إطلاق الصفات عليها، تلك التى تتراوح بين الثغر والميناء والمدينة والرباط والجزيرة والكشوفية والبرّ والقطر والبُلّيدة.

ويبلغ سطح معمور المدينة نحو ثمانمائة ألف متر، وهى محاطة بسور مرتفع له بابان ، وكان ذلك بأمر من الباشا محمد على عقب حملة فريزر، ومعه أنشئ قشلاق يقيم فيه عساكر الجهادية، وحصّنت بعدد من الطوابى. أما الأحياء ، خلا الحى

الفرنجى الذى يتجمع فيه أهل الذمّة ، فتسمى بأسماء المساجد الموجودة بها (مسجد زغلول ، مسجد العباسى ، مسجد أبو الريش ، المسجد المعلق ، مسجد المحلاوى ، مسجد أغا ، مسجد المشيد ، مسجد الصامت ، مسجد البرهان ، مسجد الإدفينى ، مسجد الرياط ....).

والشوارع الرئيسية ، مثل شارع المحلى وشارع دهليز الملك متسقة ، وتضيق وتتعرج فى الحارات والدروب والعطوف ، وتنتشر فيها جميعها اسبلة المياه وبخلاف المنازل يشمل معمور السكن عدداً من القصور والأواوين والحمامات والمقاهى.

ويلاحظ دقنة عدم حدوث تغيير أساسى فى عمارة المنازل ، سواء ما يتصل منها بفتحات التهوية ، أو تشكيل الواجهات ، أو توزيع الغرف ، أو صناعة الأبواب التى لا تُستعمل فيها المسامير ، أو وجود مخابئ وسراديب تحت معظمها. ويرجع الثبات النسبى لهذا الطراز ، من كون أن المنازل كانت معّدة تاريخيًا، كمساكن وأبراج وقلاع، لما كان يحوط هذه المدينة دائمًا من أخطار. وتوجد فى الحى الإفرنجى فنادق أوربية ، أنشئت على الطراز الرومى ، من أهمها فندق البنادقة نظرًا لاتساع نشاطهم التجارى ، وثلاث كنائس للأقباط والأروام واليهود ، ودير للفرنج زاره دقنة فى مناسبة عيد الصليب ، ووصف اجتماع الرجال والنساء فيه للاحتفال بالعيد ، وقد أوقدوا النيران ليلاً فأضاءت ما حولها ، «وقضوا ليلتهم تلك لاهين لاعبين حتى سفور الصبح»[٢٢].

وشاهد كذلك قدّاساً فى كنيسة الأروام ، ورسم صورة للراهب المتعبد فى حنّدسة، وقد أحاطت به الراهبات فى ثيابهن المميزة ، يرددون الترانيم والأناشيد الكنسية[٢٣]

أما المدافن ، فتختص كل ملَّة بمدافنها، وإن تميزت منها مدافن النصارى بعمارة جميلة ، بخلاف مدافن المسلمين واليهود .

● أهل هذا القطر المحروس

تحت هذا العنوان يتحدث دقنة عن سكان مدينة رشيد، فيذكر أن عددهم يقارب السبعة آلاف، خمسة آلاف من المصريين، والباقى من محلات أخرى (أتراك ، مماليك، غجر ، يهود، مغاربة ، أرْوام ، أرْمن ، موارنة ، شوام ، أوربيين ، وعربان وبدو) .

وينقسم المصريون فى المدينة الى ثلاثة أقسام : البعلّوة ، ويعيشون فى الجهة الغربية ، ويتسمّون كذلك لأنهم يعملون بالزراعة البعلية، والقبلوّة، ويقيمون فى الجهة القبلية ، وهى أصل المدينة القديمة ، وهم الطبقة العاملة فى مضارب الأرز . والبحاروة يسكنون الجهة البحرية ، ويعملون بصيد الأسماك .

ومع المصريين والأجانب يشير دقنة إلى فئة الهاربين إلى رشيد من وجه السلطات، كى يتمكنوا من الهروب على ظهر إحدى السفن إلى الشام أو تركيا ، ويورد أسماء عدد من العلماء أنجبتهم المدينة منهم خير الدين الطيبى ، وعلى الخياط ، وعبد الواحد الرشيدى ، ومحمد عموش ، وأحمد المغربى ، وعبد الرزاق بن حماد دوش الجزائرى ، وشمس الدين الفيومى، والشيخ ابراهيم الجارم ويلاحظ كثرة الرجال المعّمرين ، من أسماهم عبد الرحمن الجبرتى «أرباب العكاكيز» وهؤلاء يعيشون فى تؤدة واطمئنان ، يرفعون الأذى من الطريق ، ويحرصون على الصلاة فى أوقاتها ، وبخاصة صلاة الفجر، ويتقدمون الجنازات، ويقدمون النصح للأحفاد، ومنهم من يتولى القضاء فى محكمة «الخط» الأهلية، مع الوثوق بنزاهتهم وتقواهم[٢٤].

ولا يفوت دقنة أن يسجل الملاحاة القائمة بين أهالى إدكو ورشيد ، والتى تتخذ أسلوب التلاسن ، وصوّغ صور نمطية، ويوعز هذه الملاحاة الى طبيعة الرشيدى فى المرح والنكتة ، وحب التريض والنزهة، فيما يتسم أهالى إدكو بالجد والصرامة والنشاط فى العمل والسعى الدائب للرزق، بما لا يدع لهم سبيلا للفراغ والدّعة[٢٥].

● وجوه المعاش

ويقصد دقنة بهذه الوجوه مجموعة الأنشطة الاقتصادية السائدة فى المدينة ، من زراعة وصيد وصناعة وتجارة ومبادلة ، ساعد عليها خصوبة الأرض الزراعية حولها، واتساع المسطحات المائية من بحر ونهر وترع وقنوات ،إضافة الى بحيرة إدكو ، وانتشار الفوّريقات الصناعية ، وازدياد دائرة التفاعل وخطوط الاتصال بين المدينة والخارج. وتتوزع هذه الأنشطة بين السكان بحسب كل فئة : فالزراعة وصيد الأسماك وأهمها

القاروس والسردين للمصريين فى الغالب، والتجارة للمغاربة والأروام والشوام والأوربيين، والرعى للعربان والبدو ، والعطارة والحدادة للغجر، والجمارك لليهود .

ومنذ القدم ، اشتهرت رشيد بزراعة بعض المحصولات كالنخيل والتين والزيتون وحب العزيز ، ومعها الأرز الذى يعدّ محصولاً رئيسياً يزرع حول رشيد ، ويصدّر منه إلى بلاد الشام واليونان .

ووجدت صنائع يدوية عديدة ، منها فوريقات ضرب الأرز ، ومنسوجات الحرير والكتان ، وصناعة السفن وقلفطتها، وصناعة صيد الأسماك (تمليحه وتجفيفه) . وفوريقات أخرى للصباغة والمشغولات الخشبية والصابون والحدادة والزجاج والمناديل والرخام والطرابيش، وعرفت من بين أصحاب هذه الصنائع عائلات لقبت بأسماء صنائعها (المناديلى، الكحكى، الدخاخنى، الحمامى، السنان، الفطايرى، القناديلى، الميزونى ...) .

أما التجارة فمتسعة ، يبلغ عدد متاجرها ووكالاتها قرابة الألف، فيما مثلت المدينة مستودعًا لسلع أوربية وشامية وتركية ومغربية ، وإن اختص المغاربة بتجارة البقسماط ، والحجازيون بتجارة الزبيب الأسود ، والعربان بتجارة الجمال[٢٦].

● **عوائد الرشايدة**

ويرصد دقنة بعضًا من عادات وتقاليد سكان رشيد باعتبارها من أهم العلامات الدالة على طابع الحياة بها ، وبالذات ما يتصل بالخصال السائدة ، والاعتقاد فى الأولياء، والملبس ، والطعام .

فقد عُرفت عنهم خصال ثلاث : البخل ، والنكتة ، والكلام بالقاف . الخصلة الأولى البخل ، يورد دقنه أمثالاً شعبية عديدة تجرى على الألسنة وتشير إلى هذه الصفة ، ويتحدث عن نادرة سيارة ، حول الضيف عندما ينزل عند الرشيدى ، فيقول المضيف لابنه خذ عمك الى الحقل ليشبع من أكل البلح .

أما النكتة ، فهى لديهم فطرة أو بداهة ، لا يصنعونها ولا يتكلفونها، ويوعز دقة انتشارها كرد فعل على الظلم والاستبداد الذى عانته هذه المدينة طويلاً من حكامها ، وكان أكثرهم من الأتراك والشراكسة[٢٧] وتتميز لهجة الرشايدة بنبر صوت القاف ، وعدم الاهتمام بنطق الحرف الأخير من الكلمة .

ومع الدور المؤثر للفقهاء والمشايخ رغم قيام الباشا محمد على بإلغاء مسُومهم ، وكثرة الطرق الصوفية فى المدينة (الشاذلية ، والتجانية ، الخلونية ....) . يحتفل الأهالى كل عام بموالد الأولياء ، قصد تكريم أصحابها وإحياء ذكراهم .

وتشمل هذه الموالد زيارة الضريح فى طنطا (السيد البدوى)، ودسوق (إبراهيم الدسوقى)، والمحلة الكبرى (أحمد الششتاوى) ، وإقامة الأذكار فى جلسات دورية بالمنازل والمساجد ، وعمل المواكب أو «الأشاير» كما يطلقون عليها ، ويشارك فيها الغجر، وأصحاب المزامير والربابة، والمشتغلين بخيال الضل وصندوق العجب ، وتتم خلالها عوائد متعددة ، ما بين الأغانى والمدائح وألعاب الخيل والعصا ، إضافة الى ممارسة عملية الختان للأطفال الذكور[٢٧]

أما «الكُسَى» أو الملابس ، فيرتدى الرجال السروال ، وإن اختلف فى نوع قماشته تبعًا للمهنة ، وفوقه صديرى ، مع طاقية على الرأس يلفّها شال من الحرير ، فيما يستخدم الموظفون الملابس الإفرنجية والطربوش ، على حين ترتدى النساء الملاءة ، ويغطين الوجه بالبرقع[٢٨]

ويتميز أهل هذا القطر فى طعامهم بأكل البقسماط والعجوة فى الافطار، وتناول الأرز مع السمك المشوى فى الغذاء ، ويأكلون من سمك القاروس البطارخ فقط ، ولايقربون أنواعًا أخرى كالجمبرى والكابوريا والسيوف والبساريا ، والتى يتركها الصيادون على شاطئ البحر ، ولا يدخلون بها إلى المدينة .

وهم يصنعون الخبز فى البيوت ، وتخصص حجرة فيها لتخزينه ، ويعتمدون على السقّا الذى يستعمل القِربة فى جلب المياه وتعد «المصبوبة» و «الرغيف الرشيدى» المحشو باللحم من الوجبات المفضلة لدى أغنيائهم .

وفى رمضان ، يتم إعلان الإفطار مع رفع الراية البيضاء على رأس مئذنة مسجد زغلول ، لتنطلق بعدها صفارات مضارب الأرز فى كل جهات المدينة إيذانًا بالإفطار .

● **التالد والطريف :**

قد لا يبتعد مجتمع رشيد كثيراً فى خصائصه وعوائده ، كما أوردها دقنة، عن أية وحدة أخرى داخل المجتمع الحضرى فى مصر وقتذاك ، وإن تميز بتراوح أهله بين المظاهر التقليدية والمستحدثة، وبالذات فيما يتصل باللغة والعادات الصحيحة والملابس والتسمية والأمكنة .

فتحدث الجميع باللغة العربية لا يحول دون ملاحظة فارق بين لهجة أبناء رشيد وعجمة غيرهم من سكانها العرب والمسلمين ، والعلاج بالعطارة والزار والكىّ بالنار، يقابله لجوء الأغنياء إلى البيمارستانات بالإسكندرية للعلاج وارتداء الموظفين للملابس الإفرنجية، لايمنعهم من استبدالها ، بعد انتهاء أعمالهم ، بالملابس الشعبية . ووجود الأسماء الرسمية لا يحول دون مناداة بعضهم مستخدمين الكُنية . وإنارة الشوارع بالفوانيس ، لايضع حدّاً لترديد الحكايات حول العفاريت والأشباح فى الأماكن المظلمة .

وهكذا يتبدى جدل التقليد والتحديث فى أسلوب الحياة بهذه المدينة ، عبّر عنه دقنة مذكراً: أن صريح الأمر فى هذا القطر ، هو أنه يجمع ين عوائد متخالفة ، بين تالد لم يبق على حاله ، وإن كان ما يزال يعمّ حياة الأهالى المعنوية ، وطريف وافد مع الأغراب ، وهو بمنزلة اختلاط صنوف من هذه العوائد قد نألف بعضها ، وننفر من غيرها لما ينقصها من تهذيب ، وكلها أحوال تعيش فى كفالة الآخذين بها ، آملين مراعاتها لسُنّة التدرج وطبائع الحوائج وتدابير الديوان المعمور كى تأمن بذلك عاقبة عدم الامتثال» (٢٩).

هو إذن مجتمع شعبى ، طالما لم تطل التحولات الجارية فيه استمرار عناصر من الموروث ، تلك التى تسندها شروط اجتماعية ما تزال تسمح لها بتواصل مكثف وبانتقال المعارف والخبرات شفاهيًا عبر الاجيال بالنظر الى أن مجالاً عريضًا للتنشئة ما زال منوطا بالأسرة ، وأن نصائح وتوجيهات الكبار من «أرباب العكاكيز» مازالت من الأمور التى يُعتدّ بها ، ما يعنى أن الدلالة العامة التى اكتسبتها الثقافة التقليدية مازالت قائمة ، وهو ما لم يستطع التحديث أن يحلّ محلها .

ذلك هو خلاصة ما نستنتجه من حوار دقنة مع رشيد ، فهل تراه قدم مقاربة تمتلك شغفها الإنسانى حول هذه المدينة ؟

المراجــع

١- Said,E: Beginings- Intention and Method, London, Granta Books, 1998, p.61

٢ المشير عبد الله دقنة: مفاكهة المريد فى الإخبار عن رشيد، مطبعة أم درمان، الخرطوم ١٩٥٨ ، ص ٣ .

٣- المرجع السابق ، نفس الصفحة .

٤- المرجع نفسه ، ص ٤.

٥- نفسه .

٦- Vivas,E: The Artistic Translation - Essays On Theory of Literature, Columbus, Ohio State University Press, 1983,p 98.

٧- Miquel , A. : La Geographie Humaine du Monde Musulman jusqu, au milieu du lle Siècle, paris, Mouton, La Haye, 1987,p-121.

٨- ثم كتابات أنثروبولوجية معاصرة تقوم على الجمع بين تجربة الدراسة الميدانية الاثنوجرافية، وعمل المؤرخ الذى يرتكز على قراءة شواهد الماضى من وثائق ومخطوطات وأقوال شفاهية ، وكذلك أيضا الروائى الذى تتأسس تجربته على تقنية السرد . يراجع على سبيل المثال :
Cliffard,j- and G. Marcus (eds.): Writing culture-the portics and Poltics of Ethnography ,Berkeley, University of California Press, 1986-

٩- Barthes,R.: Le Plaisir du Texle , Paris, seuil, 1973,P.61.

١٠- شمس الدين محمد بن طولون: مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، المجلد الأول والثانى، القاهرة ، (د. ن) ، ١٩٦٢ ،

١١- يبدو سجع العنوان فى عمل المشير دقنة متسقًا مع تقليد أدب الرحلات، يراجع على سبيل المثال ؛ المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ٩٨٥م.

- البيرونى ، تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة ، ١٠٣١.
- الإدريسى ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ١١٥٥ .
- ابن بطوطة ، تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ١٣٢٤.
- الطهطاوى ، تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، ١٨٣٢ .
- الطنطاوى ، تحفة الأذكيا بأخبار بلاد روسيا، ١٨٥٠.

● الشدياق ، كشف المخبا عن كنوز أوربا ، ١٨٥٤ .

● يعقوب صنوع ، محاميد الفرنسيس ووصف باريس ، ١٩٨٠.

١٢- المشير عبد الله دقنة ، مرجع سابق، ص ٣٤.

١٣- المرجع السابق ، ص ٣٥.

١٤- يجدر ذكره هنا أن مقدمة ابن خلدون طبعت بالمطبعة الأميرية بالقاهرة عام ١٨٥٧ ، بتحقيق الشيخ نصر الهورينى ، وأعيد طبعها بعد ذلك عام ١٨٦٩ من قِبَل جميعة المعارف لنشر الكتب النافعة.

١٥- المشير دقنة ، مرجع سابق ، ص ٥١.

١٦- Prince,G : Narratology Form In Function Of Narrative, New York, Mouton, 1992, PP.73-74.

١٧ المشير دقنة ، مرجع سابق ، ص ٧٢ .

١٨- المرجع السابق ، ص ٩١ .

٢٠- يورد دقنة معلومات عن العالِم العربى ابن وحشية النبطى، تفيد بأنه مولود فى ضواحى الكوفة ، وورث عن والده ثروة كبيرة حُرِمَ منها وكان شديد الذكاء، فاتجه الى العلوم ومنها علم اللغات القديمة ، وله العديد من الكتب ، ووصفه من جاء بعده مثل ابن النديم بالساحر لعلمه بالطلسمات والمعارف الخنقاطرية ، كما كانت له إسهامات فى الكيمياء والحروف القديمة ، وترك فى ذلك ما يقارب الثلاثين مصنفًا ، إلى جانب ترجمة كتب عن الفلاحة النبطية . يراجع . المشير دقنة ، مرجع سابق ، ص ص٥٢-٥٣ .

٢١- المرجع السابق ، ص ٩٤

٢٢- المرجع نفسه ، ص ٩٨ .

٢٣- المرجع نفسه ، ص ٩٩

٢٤- المرجع نفسه ، ص ١٠١.

٢٥- المرجع نفسه ، ص ١٠٤-١٠٥ .

٢٦- المرجع نفسه ، ص ١١١ .

٢٧- المرجع نفسه ، ص ١١٧ .

٢٨- المرجع نفسه ، ص ١١٨ .

٢٩- المرجع نفسه ، ص ١٢١ .

حملة فريزر على رشيد ١٨٠٧
فى الإطار الدولى

أ. د. / صلاح أحمد هريدى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

بكلية الآداب بدمنهور

تتناول هذه الورقة حملة فريزر على رشيد فى الإطار الدولى . وسوف نتناول الموقف الدولى بعد الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ ، وتأثيرها على هذا الموقف فى ظل التحالفات الدولية مع الدولة العثمانية ، والتى بدأت بالتحالف الدفاعى العثمانى الروسى عام ١٧٩٨ ، والتحرير العثمانى لبريطانيا عام ١٧٩٩ ، ومعاهدة السلام بين الدولة العثمانية وفرنسا عام ١٨٠٢ ، وتجديد معاهدة التحالف الدفاعى بين الدولة العثمانية والروسيا عام ١٨٠٥، والتطورات الدولية التى ساعدت الدولة العثمانية على إنهاء المعاهدة الجائرة ، وأصداء انتصارات نابليون فى أوروبا فى استانبول ، وإرسال بريطانيا أسطولها للمضايق (الدردنيل والبوسفور) ، وإرسال حملة فريزر على رشيد عام ١٨٠٧ ٠

نبدأ بالحديث أولاً عن التحالف الدفاعى العثمانى الروسى عام ١٧٩٨ ، حيث كان نتيجة لوصول الحملة الفرنسية لمصر عام ١٧٩٨ أن عقدت الدولة العثمانية مع الروسيا معاهدة تحالف فى استانبول فى اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر - كانون الأول - عام ١٧٩٨

ومدة هذا التحالف ثمانى سنوات ٠ وفى مواد سرية منفصلة تعهدت فيها الروسيا بأن تمد الدولة العثمانية بإثنتى عشرة قطعة حربية، وإذا تطلب تطور الحوادث الحربية تعزيز القوات العثمانية؛ فإنها تمدها بقوات برية يتراوح عددها بين خمسة وسبعين ألفًا وبين ثمانين ألف جندى روسى ، وفى مقابل هذه المساعدات العسكرية الروسية تعهدت الدولة العثمانية هذه المرة فقط «بمنح الروسيا الحق فى أن تمر سفنها الحربية فى المضايق مرورا حرًا» .

وقد عقدت هذه المعاهدة فى عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) والقيصر بول الأول (١٧٩٦-١٨٠١) ٠ وبهذه المعاهدة استطاع قيصر الروسيا أن يغمد الطرف الرفيع المدبب لسيفه فى باب السلطان بعقد معاهدة التحالف الدفاعى مع السلطان سليم الثالث ٠ والفضل فى عقد هذه المعاهدة يرجع إلى نابليون وحملته على مصر ٠ وكان تصرف السلطان سليم الثالث خروجًا على السياسة العليا التى سار عليها أسلافه

فكانت تعوزه رباطة الجأش، إذ كان منزعجًا إلى أبعد حدود الانزعاج بسبب احتلال فرنسا لمصر ٠ وكان أول احتلال عسكرى أوروبى مسيحى لولاية عثمانية إسلامية فى التاريخ الحديث ٠

أما التحرير العثمانى لبريطانيا فى سنة ١٧٩٩ ، فإنه لم تكد تمر بضعة أشهر على المعاهدة ، حتى أصدر السلطان سليم الثالث مذكرة يطلق عليها «تحرير» ومؤرخة فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر عام ١٧٩٩ ، منح فيها بريطانيا حرية الملاحة فى البحر الأسود لسفنها التجارية وكذلك حق مرور هذه السفن فى المضايق ٠

ونلاحظ أن هذا الإذن كان مقصورًا على السفن التجارية ، ولم يشمل السفن الحربية على الرغم من أن بريطانيا كانت تعتبر الدولة البحرية الأولى فى غربى أوروبا٠

أما معاهدة السلام بين الدولة العثمانية وفرنسا عام ١٨٠٢ ، فترجع إلى أنه لما عاد السلام إلى أوروبا مؤقتًا عقب صلح إميان Amiens بين فرنسا وبريطانيا فى اليوم السابع والعشرين من شهر مارس - آذار - استطاعت فرنسا أن تعيد علاقتها الدبلوماسية والتجارية مع الدولة العثمانية ، فعقدت معها معاهدة سلام Treaty of Peace فى اليوم الخامس والعشرين من شهر يونيو - حزيران - ١٨٠٢ ٠ وكان أهم ما جاء فيها خاصًا بموضوع المضايق أن الدولة العثمانية منحت فرنسا لأول مرة الحق فى أن تمارس سفنها التجارية والتى تحمل العلم الفرنسى حق عبور المضايق والملاحة فى البحر الأسود دون أن تقام فى وجهها عوائق ، وأن تعامل هذه السفن على قدم المساواة معاملة السفن التجارية التى تبحر فى البحر الأسود والتى تتبع الدول الأخرى ٠

وبالنسبة لتجديد معاهدة التحالف الدفاعى بين الدولة العثمانية والروسيا فى عام ١٨٠٥، فقد استطاعت الدولة العثمانية تجديد التحالف الدفاعى مع الروسيا الذى عقد فى عام ١٧٩٨ ٠ وتقرر تجديدها لمدة تسع سنوات بتأييد الحكومة البريطانية ، وفى ظل هذا التجديد نجحت الروسيا فى أن تنتزع من الباب العالى امتيازات أشد خطرًا من أية امتيازات سابقة منحها الباب العالى للروسيا ٠ فقد اعترفت الدولة العثمانية فى المعاهدة التى أبرمت فى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر- أيلول - عام

١٨٠٥ ، بأن الدفاع عن المضايق إنما هو مسئولية مشتركة تقع من حيث المبدأ على عاتق الدولة العثمانية والروسيا ٠ ومن ضمن موادها أن يسمح السلطان العثمانى للسفن الحربية وناقلات الجنود بعبور المضايق زمن الحرب . وقرر قيصر الروسيا باسمه وإسم خلفائه من بعده سلامة الجزر الأيونية والزود عنها من كل اعتدء خارجى ٠ ولما كان الموقف السياسى فى شبه الجزيرة الإيطالية يجعل من الضرورى استمرار الاحتلال الروسى للجزر الأيونية ، فإن الاحتلال يستمر طالما كانت الأسباب التى دعت إليه لا تزال قائمة ٠ وتعهدت الدولة العثمانية باتخاذ التدابير لتسهيل مرور السفن الحربية الروسية عبر المضايق من أجل خدمة وتموين القوات الروسية التى تحتل الجزر الأيونية وإغلاق البحر الأسود بحيث لا يسمح بأن تمر عبر المضايق السفن الحربية التابعة للدول الأخرى ، فإن كل محاولة من جانب دولة أخرى - مهما كانت لانتهاك هذا القرار - يعتبر عملاً عدائياً موجهاً للدولتين العثمانية والروسية ٠ وعلى ذلك فهما يتعهدان باستخدام كل قواتهما البحرية فى وجه كل سفينة ، وكل سفينة تحمل مواد حربية تحاول دخول البحر الأسود ٠

أما عن التطورات الدولية التى ساعدت الدولة العثمانية على إنهاء المعاهدة الجائرة ، فقد كان تقرير هذا المبدأ - الدفاع المشترك عن المضايق - فى مقدمة الأخطاء الصارخة التى سقط فيها السلطان سليم الثالث ٠ فلم يحدث من قبل أن منح سلطان عثمانى للروسيا هذا الحق الذى يشكل خروجًا تامًا على السياسة العليا للدولة، وقد خفف من خطورة هذه المعاهدة غير المتكافئة أن التغييرات السريعة التى طرأت على الموقف العسكرى والسياسى فى أوروبا سنة ١٨٠٦ قد عجلت بإنهاء العمل بتلك المعاهدة ، وأطاحت بعُرى التحالف الثلاثى بين الدولة العثمانية وبريطانيا والروسيا ، كما أدت إلى تعرض الدردنيل والبوسفور للإقتحام من جانب الأسطول البريطانى ٠

وأحرز نابليون انتصارات عسكرية رائعة على النمسا فى موقعة أولم Ulm فى ٢٠ أكتوبر - تشرين الأول - عام ١٨٠٥ ودخل فيينا فى ١٣ نوفمبر - تشرين الثانى - ثم انتصر انتصارًا ساحقًا على القوات النمساوية والروسية فى موقعة أوسترليتز -Auster

litz أو موقعة الأباطرة الثلاثة فى ١٢ ديسمبر - كانون الأول - وقد تقهقر قيصر الروسيا إلى بلاده وأكره إمبراطور النمسا على التوقيع على معاهدة برسبورج -Press berg فى ٢٦ ديسمبر - كانون الأول - وتنازل فيها لفرنسا عن أقاليم أوروبية هامة (البندقية دالماشيا - وأستريا والتيرول) كما كان لهذه المعاهدة نتائج بالغة الأهمية وجاء فى أعقابها أحداث خطيرة ٠ وانتصر نابليون أيضًا على بروسيا فى موقعة بينا Jens فى ١٤ أكتوبر - تشرين الأول - عام ١٨٠٦ ، ودخل برلين فى ٢٧ من ذات الشهر ٠ وأصدر مراسيم برلين فى نوفمبر - تشرين الثانى - عام ١٨٠٦ وهى المراسيم التى اشتهرت باسم النظام القارى Le Blocus Contipental وبها أعلن نابليون حصار الجزر البريطانية، وحرم على جميع الدول الأوربية الخاضعة أو الموالية له فتح موانيها للإتجار معها ٠ وبمقتضى هذه المراسيم أصبحت السفن البريطانية التى تدخل موانئ فرنسا أو موانئ حليفاتها عرضة للمصادرة . وكان لهذه الانتصارات الحربية من حيث حجمها ومن حيث أهمية مواقع الأقاليم التى استولى عليها نابليون ما جعل نفوذه يعلو علواً كبيرًا بمبدأ التوازن الدولى فى القارة الأوروبية .

وكان لانتصارات نابليون العسكرية والسياسية أصداؤها فى استانبول حيث غدا للنفوذ الفرنسى فى دوائر الباب العالى الصدارة والغلبة على نفوذ سائر الدول الكبرى ، وتضاءل نفوذ الروسيا فى العاصمة العثمانية إلى حد بعيد، لم يعد لاتصالات ايتالينسكى Italinsky السفير الروسى وزن كبير فى دوائر الباب العالى وأخذت هذه الدوائر تناقش حق الروسيا فى مرور قواتها فى البوسفور والدردنيل بعد أن بسطت فرنسا سيطرتها على إيطاليا ، وبعد أن أصبح نفوذ الروسيا فى الجزر الأيونية سراباً . وقد ذهب الباب العالى فى موقفه العدائى من الروسيا إلى حد أنه ألغى فى شهر يونيو - حزيران - فى عام ١٨٠٦ جميع الامتيازات التى كانت ممنوحة أو مقررة من قبل للبحارة الروس . وتدخل شارل أربتنوت Charle Arbutnot السفير البريطانى فى استانبول لتأييد زميله السفير الروسى ، ولكن كان النفوذ البريطانى فى استانبول قد تضاءل، بل وصل إلى الحضيض ، وطلب السفير البريطانى من حكومته إرسال قوات

بحرية إلى منطقة المضايق تسانده فى اتصالاته مع دوائر الباب العالى . وكان الجنرال سباستيانى Sebastiani السفير الفرنسى فى استانبول قد وصل فى ١٠ أغسطس - آب - عام ١٨٠٦ حيث ظفر باستقبال رسمى حافل غير مسبوق بمثال . واستبان للسفير البريطانى المكانة العالية التى تبوأها سريعا السفير الفرنسى فى دوائر الباب العالى ، فكتب إلى حكومته بأنه إذا لم تتحرك بريطانيا بأساطيلها فإن الفرنسيين سيقومون بتعزيز الاستحكامات العسكرية فى المضايق ، ويكون هذا العمل موجهًا ضد بريطانيا· وقد تحققت نبوءات السفير البريطانى فى الأيام القليلة التالية· فقدم السفير الفرنسى مذكرة فى ١٦ من سبتمبر - أيلول - إلى الباب العالى طلب فيه إغلاق البوسفور والدردنيل فى وجه السفن الحربية الروسية · وقرر فيها أن عدم الاستجابة لهذا الطلب يعنى عملاً عدائياً موجهاً ضد فرنسا، وفى هذه الحالة فإن القوات الفرنسية الزاحفة الجرارة ، والمرابطة فى إيطاليا سوف تجتاز الأقاليم العثمانية لمهاجمة الروس وقال إن كل تحالف جديد أو استمرار العمل بتحالف قديم بين الدولة العثمانية وبين أعداء فرنسا مثل بريطانيا والروسيا لن يكون نقضًا صريحًا لمبدأ الحياد، ولكنه يُعد إسهامًا إيجابيًا واضحًا من جانب الدولة العثمانية فى الحرب التى تشنها بريطانيا والروسيا على فرنسا ·

وأكد السفير الفرنسى فى مذكرته أن الحكومة الفرنسية ستجد نفسها مضطرة إلى اتخاذ إجراءات تتمشى مع مصالحها ومع كرامتها ، وأن القوات الفرنسية الكثيفة المرابطة فى دلماشيا - وهى قوات مقصود بها أساسًا الدفاع عن الإمبراطورية العثمانية ضد أطماع بريطانيا والروسيا- ستوجه إلى أغراض تتعارض تعارضًا جذريًا مع الغرض الأول الذى من أجله أرسلت إلى دلماشيا ·

وصل النفوذ الفرنسى فى استانبول إلى أوجه حيث أقدمت الحكومة العثمانية بإرادتها المنفردة فى يوم ١٤ من نوفمبر - تشرين الثانى - عام ١٨٠٦ على فسخ معاهدة التحالف الدفاعى المجددة بينها وبين الروسيا فى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٠٥، فظلت هذه المعاهدة الجائرة نافذة بعد تجديدها ثلاثة عشر شهرًا

وواحدًا وعشرين يوماً. كما أقدمت الدولة العثمانية فى ذات اليوم وبإرادتها المنفردة على فسخ معاهدة التحالف الدفاعى المعقودة بينها وبين بريطانيا فى الخامس من يناير - كانون الثانى - عام ١٧٩٩.

ومن المبادئ المُجمع عليها فى القانون الدولى العام أن فسخ المعاهدة بالإرادة الانفرادية لإحدى الدول الأطراف أمر غير جائز، طالما أن المعاهدة لا تخوّل أطرافها هذا التصرف، تأسيسًا على أنه يؤدى إلى زوال الاستقرار فى العلاقات الدولية، ويجعل الدول فى حل من تنفيذ التزاماتها الدولية متى شاءت ، ويسلب المعاهدات قدسيتها، ويجعل بقاءها أو انقضاءها متوقفًا على السلطة التحكمية الانفرادية للدول الأطراف فيها. ومن ناحية أخرى فإن الدولة التى تفسخ المعاهدة بإرادتها الانفرادية تستند عادة إلى حق الضرورة ، أو إلى خرق الطرف الآخر لأحكام المعاهدة . والنتيجة العملية لفسخ المعاهدة بمقتضى الإرادة الانفرادية هى أن ينتهى الأمر إلى الخروج من دائرة القانون إلى دائرة السياسة والأمر الواقع، ويؤدى فى غالبية الأحيان إلى تغلب الدولة التى تتوفر لها أسباب القوة المادية. ويبدو من الملابسات التى أحاطت بهذا الإجراء أن الدولة العثمانية قد أقدمت على فسخ معاهدتيها مع الروسيا وبريطانيا بتشجيع من فرنسا وشعورًا منها أن أحكام هاتين المعاهدتين تتعارض مع سياستها العليا فى بسط سيادتها كاملة على المضايق والبحر الأسود.

وكان هذا الاجراء الدبلوماسى المزدوج من جانب الدولة العثمانية مقدمة لقطع العلاقات بينها وبين كل من الروسيا وبريطانيا وقيام الحرب . وفعلاً نجحت دبلوماسية نابليون فى أن تجر الدولة العثمانية إلى الحرب ضد الروسيا فى عام ١٨٠٦ ، وضد بريطانيا فى عام ١٨٠٧.

غير أن حكومة جرانفيل Granville والتى جاءت إلى الحكم فى شهر فبراير - شباط - عام ١٨٠٦ خلفاً لوزارة وليم بت Pitt ، أقدمت قبيل مغادرة السفير البريطانى والرعايا البريطانيين إستانبول على عدة إجراءات ردّت بها على الدولة العثمانية وعلى نابليون ، لكى تواجه الموقف الدولى المضطرب والشامل. فأصدر وندهام Windham

وزير الحربية فيها مذكرة مؤرخة فى ٢١ نوفمبر - تشرين الثانى - عام ١٨٠٦ واعتبرها سرية للغاية إلى الجنرال فوكس Fox القائد العام للقوات البريطانية فى جزيرة صقلية، وكان مما جاء فيها «أن بعض التصرفات التى صدرت من الباب العالى أخيرًا جعلت اتخاذ إجراءات سريعة تجاه الحكومة العثمانية أمرًا ضروريًا لاغنى عنه. ولذلك فقد كُلِفت بإبلاغكم أن أوامر قد صدرت إلى لورد نائب الأدميرال كولنجود lord Admiral Vice - Collingwood لإرسال قوة كافية من سفن حضرة صاحب الجلالة تحت قيادة ضباط ذوى مقدرة وتجارب ، وإعطائهم تعليمات بأن يتقدموا دون إضاعة لحظة واحدة من الوقت إلى مضايق استانبول، حيث يتخذون موضعًا يتيح للأسطول ممارسة أعمال عدائية ضد استانبول فى حالة فشل المساعى التى كلف مستر أربتنوت Mr Arbutnot السفير البريطانى القيام بها لدى الحكومة العثمانية» .

وقد وقع الاختيار على أحد كبار ضباط البحرية، وهو نائب أمير البحر سير جون دكورث Sir Admiral Vice John T.Duckworth لقيام الأسطول المتجه إلى الدردنيل والبوسفور. وعهد إليه أن يلقى الأسطول مراسيه فى مياة البوسفور تجاه العاصمة فى مظاهرة عسكرية بحرية تأييدًا لموقف السفير البريطانى فى استانبول . وأن يقدم إلى الحكومة العثمانية مذكرة بمطالب الحكومة البريطانية ، من بينها أن يقطع الباب العالى علاقاته مع الحكومة الفرنسية ، وما يترتب على هذا القطع من مطالبة السفير الفرنسى بمغادرة استانبول، وأن يتبع الباب العالى خطة سياسية جديدة تقوم على التعاون ودعم العلاقات بين الحكومتين البريطانية والعثمانية ، أى أن الحكومة البريطانية أرادت إجراء مايسمى «بمفاوضات مسلحة» Armed negotiations مع الباب العالى لفرض مطالبها عليه ، فإذا رفض الباب العالى ما جاء بالمذكرة البريطانية أُعتُبِر هذا الرفض دليلاً على أن الحكومة العثمانية ماضية فى تعاونها مع باريس ومصممة على موقفها العدائى من بريطانيا، وفى هذه الحالة يقوم دكورت قائد الأسطول البريطانى بتبليغ هذا الرفض إلى الجنرال فوكس Fox القائد العام للقوات

البريطانية فى جزيرة صقلية ، فيسارع الأخير بإرسال جزء من قواته إلى الإسكندرية لاحتلالها كى تتخذ بريطانيا من الإسكندرية نقطة ارتكاز لتحركات القوات البريطانية فى الحوض الشرقى فى البحر المتوسط ضد فرنسا وضد الدولة العثمانية ، وكانت بريطانيا تعتقد ان نابليون يعاود الكرّة لتحقيق أحلامه فى الشرق وتنفيذ أطماعه فى تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة فرنسية ، كما كانت تعتقد أنها ارتكبت خطأً عسكريًا وسياسيًا فاحشًا حين وافقت على الجلاء عن مصر تنفيذاً لصلح إميان Amiens (٢٧مارس - آذار- سنة ١٨٠٢) وقد تم الجلاء فى مارس - آذار - ١٨٠٣، ثم استؤنفت الحرب بين بريطانيا وفرنسا بعد ذلك بشهرين، فكان ذلك الإجراء الحربى البريطانى ذو الشقين - اقتحام المضايق لتقديم المطالب البريطانية كى يأخذ بها الباب العالى أو احتلال الإسكندرية - يقوم على استخدام الضغط ووسائل التخويف مع الحكومة العثمانية لحملها على فصم عُرى التحالف مع فرنسا. وقد عبّرت وزارة الحربية البريطانية عن أهدافها من هذه الإجراءات العسكرية بأنها أرادت إكراه الباب العالى على التخلص من نفوذ فرنسا وحمله على إعادة علاقاته مع بريطانيا العظمى والروسيا.

تمكن دكورت من عبور الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور دون عناء ورسا بأسطوله أمام استانبول فى ١٩ من فبراير - شباط - ١٨٠٧ ، ويلاحظ أن هذه هى المرة الوحيدة التى دخل فيها الأسطول البريطانى منطقة المضايق وهو فى حالة «غير سلم»، ولما بلغ الأسطول مياه العاصمة كان أربتنوت Arbutnot السفير البريطانى قد غادرها ومعه جميع الرعايا البريطانيين، كمارحل عنها من قبله إيتالينسكى Italinsky السفير الروسى . وقد قدم قائد الأسطول البريطانى إلى الباب العالى مذكرة حكومته، وكان موقف الباب العالى ضيقًا حرجًا، ولم يكن حرج الحكومة العثمانية راجعًا إلى أنها تفضل إحدى هاتين الدولتين العملاقتين على الأخرى، وكانت تود لو تركها لشأنها الإنجليز والفرنسيين معًا. ولكن كان الطرفان يضغطان عليها ضغطًا لا هوادة فيه. وكان عليها أن تفكر ملياً فى تقدير الموقف السياسى والعسكرى . وهل خطر الإنجليز أكثر

من خطر الفرنسيين أم العكس؟ . وعمدت الحكومة العثمانية إلى أسلوبها الدبلوماسى المألوف، وهو التسويف . ولم يكن فى مقدورها طرد الجنرال سباستيانى Sebastiani السفير الفرنسى؛ لأن شخصيته كانت قوية ، ولأن نابليون فى القارة الأوروبية كان طاغيًا، وخاصة بعد أن مد السيطرة الفرنسية إلى أقاليم فى شرقى أوروبا على مقربة من الممتلكات العثمانية هناك. وانتهت الحكومة العثمانية إلى أن فرنسا أشد خطراً عليها من بريطانيا .

ورأى قائد الأسطول البريطانى أن الحكومة العثمانية لا ترد على مطالبه، وأدرك أن هذا الصمت هو رفض للمطالب البريطانية، ثم كان ما هو أشد خطرًا، إذ لاحظ أن أعمال التحصينات العسكرية على ضفاف البوسفور والدردنيل قائمة على قدم وساق ، وأن السفير الفرنسى يشرف عليها بشخصه، ففكر دكورت فى الخروج من منطقة المضايق والعودة من حيث أتى قبل أن يتحرج مركزه ويغلق الطريق على الأسطول، وكان تقدير دكورت للموقف الحربى سليماً؛ فما كاد يتحرك للخروج من منطقة المضايق فى طريقه إلى البحر المتوسط حتى ألقت مدفعية السواحل قذائفها على الأسطول وأصيبت بعض وحداته بعطب ولكنها لم تغرق ، وكان ذلك فى اليوم الثانى من شهر مارس - آذار - بعد أن استطال مكثه فى منطقة المضايق نحو إثنى عشر يومًا . وقد جاء فى مذكرة سرية مؤرخة فى ٢٥ من إبريل - نيسان - ١٨٠٧ وضعها وزير الحربية البريطانية أن دكورت وجد نفسه مضطراً للانسحاب بأسطوله من مياه البوسفور دون أن يحقق شيئًا ضد استانبول . وعندئذ شرع دكورت بتنفيذ الشطر الثانى من خطة الحكومة البريطانية، وهى إبلاغ الجنرال فوكس القائد العام للقوات البريطانية فى جزيرة صقلية رفض الحكومة العثمانية الاستجابة للمطالب البريطانية فيبادر فوراً بإرسال حملة إلى مصر تحتل مدينة الإسكندرية .

وقد جرد القائد العام للقوات البريطانية فى صقلية حملة قوامها زهاء خمسة آلاف جندى بقيادة ماكنزى فريزر Major General Mackenzie Fraser ، ولم يكن جنود الحملة من الانجليز ، بل كان بينهم عدد كبير من الجنود المرتزقة من الإيطاليين دخلوا

فى خدمة الانجليز . وكانت لدى قائد الحملة أوامر صريحة بأن هدف الحملة هو احتلال الإسكندرية دون غيرها من البلاد المصرية .

ولو كان الانجليز يريدون احتلال مصر لما كان هذا العدد الصغير يكفى لاحتلال البلاد لأنهم كانوا قد مروا بتجربتين خلال سنتى ١٧٩٨ و ١٨٠١ ، ولما بلغت الحملة الإسكندرية فى ٦ مارس - آذار - سنة ١٨٠٧ استولت على ثلاث قطع بحرية عثمانية كانت راسية فى الميناء الغربى ، وقد سلم المدينة إلى الإنجليز حاكمها أمين أغا ويسمى أيضا «أمين قبطان الكريتلى» بعد أن وقعت شروط التسليم واحتل الانجليز الميناء والمدينة وقلاعها وضواحيها الهدف الأساسى للحملة .

هكذا يتضح أن الموقف الدولى والعلاقات بين الدول العظمى والدولة العثمانية بشكل خاص ، وعملية التحالفات ضد الإمبراطورية الفرنسية ، هى التى كانت السبب المباشر فى إرسال حملة الجنرال فريزر إلى مصر، وإن كانت تفاعلات هذه الحملة ونتائجها سوف تؤثر على مصر وعلى أهلها ونظام الحكم فيها .

هزيمة الحملة الإنجليزية
فى رشيد

٢١ محرم ١٢٢٢ هـ / ٣١ مارس ١٨٠٧

د. أحمد عبد العزيز على عيسى

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب بدمنهور - جامعة الإسكندرية

هزيمة الحملة الإنجليزية فى رشيد ٢١ محرم ١٢٢٢ هـ / ٣١ مارس ١٨٠٧

إن لكل أمة من الأمم أيامًا لا تُنسى، وخاصة التى تتعلق بالكفاح والمقاومة الشعبية، وقد ظهر ذلك بوضوح عندما شارك المصريون فى مقاومة الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١)، وظهر بصورة أوضح عندما تصدى شعب رشيد للحملة الإنجليزية التى كان يقودها الجنرال فريزر Fraser عام (١٨٠٧) ، وضرب مثالاً رائعًا فى البطولة والفدائية، هو ما سنتعرض له فى الصفحات التالية ، وذلك من خلال الحديث عن الموقف الدولى الذى أدى لإرسال الحملة ، ثم سيطرة الحملة على الإسكندرية ، وتوجهها بعد ذلك لرشيد وهزيمتها هناك ، علاوة على الهزيمة فى الحماد، وعلى أثر ذلك دارت المفاوضات بين محمد على والإنجليز للجلاء عن مصر .

أولاً : الموقف الدولى

عقب خروج الحملة الفرنسية من مصر عام ١٨٠١ حدثت اضطرابات سياسية، أدت فى نهاية الأمر إلى تولى محمد على حكم مصر برأى العلماء، وقد وافق السلطان العثمانى على ذلك[١]، فى هذه الأثناء زاد التقارب العثمانى الفرنسى بين السلطان سليم الثالث والإمبراطور نابليون بونابرت خاصة بعد انتصار فرنسا على النمسا وروسيا فى موقعة أوسترليتز فى ٢٠ ديسمبر ١٨٠٥؛ مما أدى إلى تراجع القيصر الروسى إلى بلاده، وأجبر إمبراطور النمسا على توقيع معاهدة برسبورج وتنازل بموجبها لفرنسا عن أقاليم أوربية مهمة وهى البندقية، ودالماشيا، وأوستريا، والتيرول، وبموجب ذلك أطلقت يد فرنسا فى إيطاليا وجنوب ألمانيا[٢].

وكان لانتصارات نابليون العسكرية والسياسية أصداؤها فى استانبول ، فقد أصبح النفوذ الفرنسى قويًا هناك على نفوذ سائر الدول الكبرى، وتضاءل نفوذ روسيا لدرجة أنه لم يعد لاتصالات إيتالينسكى Italinsky السفير الروسى فى دوائر الباب العالى وزن كبير ، وأخذت هذه الدوائر تناقش حق روسيا فى مرور قواتها فى البوسفور والدردنيل، وقد ذهب الباب العالى فى موقفه العدائى من روسيا لأبعد من ذلك ، فقد

ألغى فى شهر يونيو ١٨٠٦ جميع الامتيازات التى كانت ممنوحة للبحارة الروس ، وتدخل شارل أربتنوت Charles Arbutnot السفير البريطانى لتأييد السفيرالروسى، ولكن النفوذ البريطانى فى استانبول قد تضاءل هو الآخر، وطلب السفير البريطانى من حكومته إرسال قوات بحرية إلى منطقة المضايق تسانده فى اتصالاته مع دوائر الباب العالى. فى ظل هذه الأحداث وصل سباستيانى Sebastiani السفير الفرنسى لاستانبول فى أغسطس ١٨٠٦، وظهر للسفير البريطانى المكانة العالمية التى تبوأها السفير الفرنسى فى استانبول ، فكتب إلى حكومته طالبًا منها أن تحرك أساطيلها لأن الفرنسيين سيقومون بتعزيز الاستحكامات العسكرية فى المضايق ، وعليه فهذا العمل موجهًا ضد بريطانيا[٣].

ولم تمض سوى فترة بسيطة حتى قدم السفير مذكرة فى سبتمبر ١٨٠٦ إلى الباب العالى يطلب فيها إغلاق البوسفور والدردنيل فى وجه السفن الحربية الروسية، وذكر فيها أن عدم الاستجابة لهذا الطلب يُعد عملاً عدائيًا ضد فرنسا. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد وصل النفوذ الفرنسى فى استانبول إلى أبعد من ذلك. حين أقدمت الحكومة العثمانية بتشجيع من فرنسا فى ١٤ نوفمبر ١٨٠٦ على إلغاء معاهدتى التحالف الدفاعى بينها وبين روسيا وبريطانيا؛ لشعورها بأن أحكام هاتين المعاهدتين تتعارضان مع سياستها العليا فى بسط سيادتها الكاملة على المضايق والبحر الأسود، وكان هذا الإجراء من جانب الدولة العثمانية مقدمة لقطع العلاقات بينها وبين روسيا وبريطانيا، وقيام الحرب ، وفعلاً نجحت دبلوماسية نابليون فى جر الدولة العثمانية فى حرب ضد روسيا عام ١٨٠٦، وضد بريطانيا عام ١٨٠٧[٤].

وكرد فعل من انجلترا قررت إرسال جزء من قواتها البحرية بقيادة جون دكورت John Ducworth للمرابطة فى البوسفور والدردنيل، وعهد لذلك الأسطول بإلقاء مراسيه فى مياه البوسفور تجاه العاصمة كتأييد للسفير البريطانى فى استانبول، وتم تكليف دكورت بإرسال مذكرة للباب العالى يطلب فيها أن تقطع الدولة العثمانية كل علاقاتها بفرنسا، وتعود العلاقات العثمانية البريطانية مرة أخرى ، وإذا رفضت يعتبر

ذلك عملاً عدائيا ضد انجلترا . وفى هذه الحالة سيقوم دكورت بإبلاغ فوكس Fox القائد العام للقوات البريطانية فى صقلية ليرسل بعضًا من تلك القوات لاحتلال الإسكندرية ، على أن يتم اتخاذها كنقطة ارتكاز فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ضد الدولة العثمانية وفرنسا . ولما عُرضت المذكرة على الباب العالى كان فى موقف حرج، وانتهى به الأمر إلى الميل لفرنسا على أساس أنها أشد خطرًا عليه من انجلترا، ولما رأى قائد الأسطول أن الحكومة العثمانية لا ترد عليه، وأن أعمال التحصينات العسكرية فى البوسفور والدردنيل تسير بقوة بإرشاد من السفير الفرنسى والمهندسين الفرنسيين اضطر إلى سحب قواته، وعندئذ شرع دكورت فى إبلاغ فوكس بموقف الدولة العثمانية برفضها للمطالب الإنجليزية ، لذا عليه أن يبادر بإرسال حملة إلى مصر تحتل مدينة الإسكندرية[٥]

وقد شجع تلك الفكرة ميست Misset قنصل بريطانيا فى الإسكندرية ، فقد كان يردد فى رسائله لحكومته أن مصر أصبحت صيدًا سهلاً للمشروع الفرنسى، لذا قررت الحكومة البريطانية إرسال حملة إلى مصر بقيادة الجنرال فريزر، وقامت الحملة من جزيرة صقلية متجهة إلى الإسكندرية[٦] ، وعليه فالموقف الدولى والعلاقات بين الدولة العثمانية ، وبين كل من فرنسا وإنجلترا والروسيا هى السبب المباشر فى إرسال حملة الجنرال فريزر إلى مصر .

ثانيا : سيطرة الحملة الإنجليزية على الإسكندرية .

تم تكليف الجنرال فريزر لقيادة الحملة ، يساعده فى ذلك الجنرال ووشوب Wauchope ، فى حين تولى القيادة البحرية للحملة هالوويل[٧] Hallowell، وقد بلغ عدد أفرادها ستة آلاف ، واستعدت للتوجه من صقلية إلى مصر فى ٦ مارس ١٨٠٧، بعد أن تأكدت القطعية بين الدولة العثمانية وبريطانيا[٨]

توجهت الحملة إلى الإسكندرية وتمكنت من احتلالها فى ٢١ مارس ١٨٠٧ ، على الرغم مما لاقاه الانجليز من صعوبات أثناء ذلك، وفقدانهم لبعض جنودهم[٩]؛ فى ذلك الوقت كان محمد على منشغلاً بالحرب ضد المماليك فى الصعيد ، وأخذ ميست القنصل الانجليزى يراسل الأمراء المماليك موضحاً لهم أنه قد حانت الفرصة لاستعادة

سلطانهم، ولما كان الانجليز يعتمدون على صديقهم محمد بك الألفى الذى توفى قبل وصول الحملة ، فاتصلوا بخليفته شاهين بك يؤكدون له أن الحملة جاءت لتأييد جماعة الألفى لإنشاء حكومة ملكية صديقة لبريطانيا، خاصة وأن الأخيرة كانت تعتقد أن محمد على يعمل على فتح باب للنفوذ الفرنسى فى مصر (١٠).

فى ذلك الوقت صدرت الأوامر من استانبول إلى محمد على لوضع حد لعملياته الحربية ضد المماليك للتصدى للخطر الانجليزى ، وقد رأى محمد على بعد سلسلة من المعارك- والتى لم تسفر عن نتيجة حاسمة - أن يشرع فى مفاوضات الصلح مع البكوات المماليك حتى يتسنى له العودة للقاهرة، ووعدهم إذا ساعدوه فى التخلص من الخطر الانجليزى أن يجتمع بهم ، ويقرروا شكل الحكومة المقبلة للبلاد. وقد رفضت جماعة الألفى العرض البريطانى للانضمام إليهم، وأكدوا أنهم لن يستخدموا المسيحيين لمحاربه المسلمين، وانتظر باقى المماليك ليروا نتيجة الصراع الجديد(١١)

ثالثا : توجه الحملة الإنجليزية إلى رشيد وهزيمتها فى ٢١ محرم ١٢٢٢هـ / ٣١ مارس ١٨٠٧م

بعد احتلال الإسكندرية لم ينتظر ميست رد البكوات المماليك على رسالته، وحاول إقناع فريزر بضرورة احتلال رشيد، ولكن فريزر تردد فى بداية الأمر، لأن ذلك يتعارض مع التعليمات الصادرة ، والتى اقتصرت على احتلال الإسكندرية فقط ، وسرعان ما غير رأيه بسبب إلحاح ميست المستمر، وأرسل إلى لندن طالبًا منها المساعدات ، وبرر اتجاه الحملة إلى رشيد بأن جنود الحملة بالإسكندرية يحتاجون إلى المواد الغذائية ؛ والتى لا يمكن توافرها إلا بعد السيطرة على رشيد والرحمانية، علاوة على انشغال محمد على بنزاعه مع المماليك، وعدم توقع مساندة الشعب إذا حاول الدفاع عن رشيد، بالإضافة إلى اعتقاده بأن نجاح الحملة سيحمل البكوات المماليك على التوجه من الصعيد لمؤازرة جيش الاحتلال، وبدأ تحرك القوات الإنجليزية من الإسكندرية ، وكانت تبلغ ما يقرب من ١٤٠٠ جندى بقيادة الجنرال ووشوب ، والجنرال ميد Made.(١٢)

وتزعم المقاومة فى رشيد على بك السلانيكلى، وقد تمكن من جمع عدد كبير من الأهالى للمشاركة فى الدفاع عن مدينتهم، بالإضافة إلى حامية المدينة. فى ذلك الوقت تجلى تحرك الوطنية فى القاهرة بزعامة السيد عمر مكرم بالتنظيم وتعطيل الدراسة فى الأزهر كى يتفرع المشايخ والطلاب للجهاد ، فمنهم من تطوع لحفر الخنادق حول القاهرة ، ومنهم من تطوع بالسفر إلى رشيد، فى الوقت الذى كان فيه محمد على لا يزال فى الصعيد تلكأ فى العودة إلى القاهرة دون أن يكون له أثر فى توجيه الشعب، واستنفاره للقتال(١٣) . بعد ذلك وصلت الفرقة الإنجليزية أمام رشيد ، وقرر القائد الانجليزى ووشوب دخولها، وقسّم قواته إلى ثلاث وحدات تتجه كل منها إلى منطقة معينة فى المدينة، ومع تقدم القوات الانجليزية وتقهقر جنود الحامية كانت إحدى الوحدات الانجليزية تسير إلى جوار النيل، وفجأة فتح رجال الحامية النيران على الانجليز، فاضطروا لترك مدافعهم التى كانوا يجرّونها . أما الفرقة الثانية - والتى كانت تعمل فى القطاع الأوسط - فكانت تسير قرب المنازل، وتمكنت من إسكات نيران العثمانيين ورجال الحماية ، ثم تمكنت من فتح ثغرات فى أسوار المدينة ، ثم بدأت بقيادة الجنرال دخولها فى ذلك الوقت ، علم الأخير أن الوحدة الثالثة كانت تواجهها بعض الصعوبات، ولا تتمكن من دخول المدينة فاسرع للحاق بها، ووجد قائدها ميد جريحًا، وبعد إعادة الانضباط قامت هذه الفرقة من جديد وتمكنت من دخول المدينة، بعدها عاد الجنرال ووشوب إلى فرقته، والتى كانت قد استولت تقريباً على الأحياء الرئيسية فى رشيد ، وكان قد جرح فى كتفه، ثم أمر بعدها بمواصلة الهجوم، وجرح من جديد ومات بعدها، وتمت عملية احتلال المدينة ، وقام الانجليز بقتل من وجدوه من القوات العثمانية(١٤).

كان ذلك فى ٢١ محرم ١٢٢٢هـ/ ٣١ مارس ١٨٠٧ ، وعليه قرر محافظ رشيد على بك السلانيكلى مقاومة الانجليز معتمداً على الشعب وحامية المدينة ، وأمر رجال الحماية والأهالى بالاعتصام داخل المنازل، وأمر ألا يبادر أحد بإطلاق النار إلا عند صدور الإشارة بالضرب، كما أمر بإبعاد السفن التى يستخدمها الأهالى فى عبور النيل

إلى الضفة الشرقية حتى لا يفكر أحد من الجنود والأهالى بالانسحاب من رشيد ، وأدرك سكان رشيد أن نهر النيل من خلفهم والانجليز أمامهم فلا سبيل إلا الاستبسال فى القتال[١٥].

تقدم الانجليز دون أدنى مقاومة؛ ودخلوا المدينة واعتقدوا أنها سقطت فى أيديهم، وانتشروا فى طرقاتها وأزقاتها يرتادون أماكن يلجئون إليها ويستريحون فيها ، وجلسوا على المقاهى يأكلون ويشربون، ثم تجرّدوا من سلاحهم عندما أصدر على بك السلانيكلى أوامره بالتصدى للانجليز، وتحولت المدينة كلها إلى بركان قذف حممه ضد الانجليز الذين امتلأت شوارع رشيد بقتلاهم، ومن بقى حيًا لاذ بالفرار، وقد حاول قائد الأسطول الانجليزى الراسى فى البحر عند مدخل رشيد إنقاذ القوة المهزومة عن طريق اقتحام النهر بزوارق صغيرة، ولكن قلعة رشيد ، وثلاث سفن مزوّدة بالمدفعية إلتحمت بالأسطول الانجليزى ، وتمكنت من صده[١٦].

وعن ذلك يقول الجبرتى "وردت أخبار من ثغر رشيد يذكرون بأن طائفة من الإنكليز وصلت إلى رشيد فى صبح يوم الثلاثاء حادى عشرينه[١٧] ، ودخلوا إلى البلد ، وكان أهل البلدة ومن معهم من العساكر منتبهين ومستعدين بالأزقّة والعطف وطيقان البيوت، فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية ، فألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان ، فلم يلتفتوا لذلك، وقبضوا عليهم، وذبحوا منهم جملة كثيرة، وأسروا الباقين، وفرت طائفة إلى ناحية دمنهور، وكان كاشفها عندما بلغه ما حصل برشيد اطمأن خاطره، ورجع إلى ناحية ديبى ، ومحله الأمير ، وطلع بمن معه إلى البر فصادف تلك الشرذمة فقتل بعضهم، وأخذ ما بقى منهم أسرى، وأرسلوا السعاة إلى مصر بالبشارة، فضربوا مدافع وعملوا شنكا، وخلع كتخدا بيك على السعاة الواصلين ، وأسرعت المبشرون من أتباع العثمانيين، وهم القوّاسة الأتراك بالسعى إلى بيوت الأعيان يبشرونهم، ويأخذون منهم البقاشيش والخلع، وصار الناس من بين مصدق ومكذب»[١٨].

وبلغت خسائر الانجليز فى تلك المعركة حوالى ١٧٠ قتيلاً و ٢٥٠ جريحاً و ١٢٠ أسيراً سيقوا إلى القاهرة ، وكان لهذه الهزيمة وقع كبير على نفوس أهالى القاهرة ، فخرجوا لمشاهدة الأسرى الانجليز عند وصولهم يوم ٥ أبريل ١٨٠٧، فى حين بلغت خسائر المصريين ٤٠ رجلاً وحوالى ١٠٠ جريح[١٩].

رابعاً : هزيمة الإنجليز فى الحماد ٢١ إبريل ١٨٠٧.

بعد ذلك قرر فريزر أن يمحو آثار هزيمة رشيد فأرسل حملة ثانية تتألف من أربع كتائب وبعض وحدات من المدفعية ، والفرسان ومشاة الأسطول ، وصل عددها إلى ٢٥٠٠ رجل بقيادة الجنرال وليم ستيوارت Wiliam Stewart ، يعاونه الكولونيل أوزوالد Oswald ، وتحركت تلك الحملة فاحتلت قرية الحماد جنوبى رشيد ، وكان الغرض من احتلالها تطويق رشيد ومنع وصول المدد إليها، ولحماية مؤخرة الجيش الانجليزى والمحافظة على مواصلاته مع المخازن التى أقيمت على ساحل بحيرة إدكو[٢٠]، كما قام الانجليز باحتلال ربوة أبى مندور ، ونصبوا عليها المدافع لدك مدينة رشيد وللقضاء على أية مقاومة لأهل المدينة[٢١].

وقد اعتقد الانجليز أن ضرب رشيد بالمدافع سيلقى الرعب فى نفوس الحامية والأهالى ويضطروهم للتسليم ، وقد أنذروهم أكثر من مرة أن يسلموا المدينة ؛ لكنهم رفضوا، وأرسل السيد حسن كريت نقيب الأشراف فى رشيد خطابًا إلى السيد عمر مكرم فى القاهرة يطلب منه إمداد المدينة بالرجال والعتاد، ويقول الجبرتى عن ذلك "ورد مكتوب السيد حسن كريت نقيب الأشراف برشيد ، يذكر فيه أن الانجليز لما وقع لهم ما وقع برشيد ، ورجعوا فى هزيمتهم إلى الإسكندرية ، استعدوا وحضروا إلى ناحية الحماد، قبلى رشيد، ومعهم المدافع الهائلة والعدد ونصبوا متاريسهم من ساحل البحر إلى الجبل عرضا ... فهذا ما حصل أخبرناكم ، ونرجو الإسعاف والإمداد بالرجال والعدة والعدد وعدم التأنى والإهمال "[٢٢]

ولما وصلت هذه الرسالة للسيد عمر مكرم قرأها على الناس وحثّهم على التأهب والخروج للقتال ؛ فامتثلوا لذلك، وجمع إليهم طائفة من المغاربة وأتراك خان الخليلى وغيرهم ، ثم سافروا إلى رشيد[٢٣]

ثم يأتى دور محمد على الذى أرسل حملة تتألف من أربعة آلاف من المشاة، وألف وخمسمائة من الفرسان تحت قيادة نائبه ، ودارت بين المصريين والانجليز معركة فى الحماد يوم ٢١ إبريل ١٨٠٧م ، استمرت ثلاث ساعات، وانتهت بهزيمة الجيش الانجليزى الذى حاول الانسحاب، ففشل وتعرض للإبادة[٢٤]. وبعد هزيمة الانجليز فى الحماد قرر الجنرال ستيوارت رفع حصاره عن رشيد ، والانسحاب إلى أبى قير، حيث انتقل منها منسحبًا إلى الإسكندرية عن طريق البحر[٢٥].

خامسا : محمد على يفاوض الانجليز للجلاء عن مصر.

فكر محمد على فى الزحف على الإسكندرية وتخليصها من الانجليز ، ولكن قبل أن يبدأ زحفه وصلته فى ١٠أغسطس ١٨٠٧ رسائل من الجنرال فريزر من أجل المفاوضة والجلاء عن البلاد ، وسبب ذلك حسن معاملة محمد على للأسرى الانجليز، كما رأت انجلترا أن وسائل ضغطها العسكرى على استانبول باءت بالفشل نتيجة تحصين قلاع الدردنيل بمساعدة بعض الفنيين الفرنسيين، وعليه رأت بريطانيا ضرورة الانسحاب من مصر، وفى ١٤ سبتمبر ١٨٠٧م وصل المندوب الانجليزى، وتم التوقيع على الاتفاق ، وقّعه محمد على كطرف مصرى ، ووقعه عن الجانب الانجليزى الجنرال شربورك Sherburok ، والكابتن فيلوز Veluze ، ونص على وقف القتال بين الجانبين والجلاء عن الإسكندرية ، وإطلاق سراح الأسرى الانجليز فى مصر، علاوة على بقاء وكيل بريطانى بالإسكندرية بعد إخلائها لاستلام كل من يُعثَر عليه من الأسرى الانجليز. وفى ١٦ سبتمبر كانت بداية مغادرة الانجليز من ميناء الإسكندرية وتم جلاء الانجليز عن الإسكندرية بالكامل يوم ١٩ سبتمبر ١٨٠٧م[٢٦].

نخرج من العرض السابق بنتيجة مهمة، وهى أن انتصار المقاومة الشعبية على الحملة الانجليزية فى رشيد كان ضربة قوية موجهة ضد الانجليز، وعن هزيمة رشيد يقول الجنرال فريزر فى تقريره إلى وزارة الحرب البريطانية «إن الهزيمة أمام الأهالى فى رشيد كانت ضربة قاسية غير متوقّعة أصابت الانجليز» وقال ميست «إن انتصار

المصريين فى معركة رشيد سوف يبعث الدهشة البالغة فى العالم حين يسمع أن مدينة مثل رشيد قد استعصت على جيش أوربى حديث»[٢٧] .

وعلى الرغم من انتصار المقاومة فى الحماد بمساعدة قوات أرسلها محمد على إلا أنها كانت تحصيل حاصل ونتيجة حتمية لهزيمة رشيد؛ لأن الانجليز كانوا يريدون أن يثأروا لما حدث لهم فى رشيد ، فتقدموا نحو الحماد دون إعداد مُحكم فكانت الهزيمة، وقد كشفت الحملة الانجليزية على رشيد مدى تماسك المجتمع المصرى، وقوته وصلابته فى مقاومة المحتل ، وهى صفحة من صفحات تاريخ مصر الحديث تثبت مدى ما يتمتع به المصريون من إيمان وقوة، وهو ما ظهر بوضوح فيما بعد بداية من الاحتلال الانجليزى لمصر عام ١٨٨٢ وحتى عام ١٩٥٢.

الهـــوامش

١- عمر عبد العزيز ، وآخرون ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ٢٠٠٣، ص ٢٤٥ - ٢٥٢ .

٢- هـ. فشر ، تاريخ أوربا فى العصر الحديث ١٧٨٩ - ١٩٥٠ تعريب / أحمد نجيب هاشم ، وديع الضبع، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤، ص ٨٠، ٨١، صلاح أحمد هريدى، أوربا من الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الأولى، دار الوفاء لدنيا للطباعة والنشر، الإسكندرية ٢٠٠٧ ، ص١٠٢ .

٣- عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

٤- المرجع السابق ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

٥- نفسه ، ص ٢٠٨- ٢١١ .

٦- عبد الحميد البطريق : «عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر» (١٨٠٥- ١٨٨٣) سلسلة تاريخ المصريين ، العدد ١٥٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٩، ص١٧.

٧- وثـائـق الخـارجيـة البـريطـانية عـن الحمـلة الإنجليـزية على مصـر عام ١٨٠٧ بعنوان F.O Notices of an Expedition Egypt in the Year 1807,P.3.

٨- جلال يحيى: مصر الحديثة (١٨٠٥-١٨٤٠)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الإسكندرية، ١٩٨٣ ، ص ١٣٥.

٩- Op. cit., P.5

١٠- عبد الحميد البطريق : المرجع السابق ، ص ١٨,١٧؛ جى فارجيت: محمد على مؤسس مصر الحديثة، ترجمة / محمد رفعت عواد، المجلس الأعلى للثقافة، العدد ٤٩٢، القاهرة ٢٠٠٣ ، ص ٤٠.

١١- صلاح أحمد هريدى، دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر، (١٢٢٠ - ١٣٠٠هـ/١٨٠٥-١٨٨٢) دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٦، ص ٢١، ٢٢.

١٢- سيد رجب حراز، المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال البريطانى (١٥١٧-١٨٨٢)، دار النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٩٠، جلال يحيى، المرجع السابق ، ص ١٤١ .

١٣- صلاح أحمد هريدى ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، ص ٢٣.

١٤- جلال يحيى، المرجع السابق ، ص ١٤١-١٤٢، محمد محمود زيتون ، إقليم البحيرة، صفحات مجيدة من الحضارة والثقافة والكفاح، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٢، ص٤٢٢،٤٣٢.

١٥- صلاح أحمد هريدى، دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر، ص٢٣؛ سيد رجب حراز المرجع السابق ، ص ١٩١.

١٦- صلاح أحمد هريدى ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر،ص ٢٤، عصام محمد شبارو المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسى والغزو البريطانى ، دار التضامن، بيروت ١٩٩٢ ، ص١١٧، محمد صبرى : تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٩٦، ص ٣٤، ولمزيد من التفاصيل حول هزيمة الانجليز فى رشيد أنظر F.O. op.cit. p.p.6-12

١٧- ٢١ محرم ١٢٢٢هـ/ ٣١ مارس ١٨٠٧ ، لمعرفة التاريخ الهجرى بما يوافقه بالميلادى أنظر www. 6abib.com/ conv.htm ؛ وأيضًاف . ويستفلد، جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها ترجمة / عبد المنعم ماجد، عبد المحسن رمضان ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٠، ص ١٠٦ ، ١٠٧.

١٨- عبد الرحمن بن حسن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، الجزء الرابع ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٩٨، ص ٧٨.

١٩- صلاح أحمد هريدى ، دراسات فى تاريخ مصر ، ص ٢٤ .

٢٠- عصام محمد شبارو، المرجع السابق، ص ١١٨، جلال يحيى، المرجع السابق، ص١٤٥،١٤٧.

٢١- F.O. op.cit. p.18.

٢٢ عبد الرحمن الجبرتى ، المصدر السابق، الجزء الرابع ، ص ٨٢، ٨٣.

٢٣- محمد مورو ، صفحات من كفاح الشعب المسلم فى مصر ١٧٩٨ - ١٨٠٧م، الزهراء للإعلام العربى القاهرة ١٩٩٢، ص ٢٦٨: عصام محمد شبارو، المرجع السابق، ص ١١٨.

٢٤- صلاح أحمد هريدى ، دراسات فى تاريخ مصر، ص ٢٥، جلال يحيى ، المرجع السابق ص١٥٧-١٦٣، محمد محمود زيتون ، المرجع السابق، ص٤٣٦.

٢٥- جلال يحيى ، المرجع السابق ، ص ١٥٧ - ١٦٣ .

٢٦ جلال يحيى ، المرجع السابق ، ص ١٦، عصام محمد شبارو ، المرجع السابق ، ص ١٢٠، محمد مورو ، المرجع السابق ، ص ٢٧٠.

٢٧- عبد الحميد البطريق ، المرجع السابق ، ص ١٩، ٢٠.

رشيد ... لماذا ؟

دراسة فى عبقرية المكان !

د. صفاء شاكر

مركز تاريخ مصر المعاصر

جرت العادة على أن الاهتمام فى معظم الأحوال ينصب على الدولة بأكملها حين يتم تحليل موقف سياسى محدد، لأن الحدث السياسى دائمًا ما ينعكس على البلاد ككيان واحد، أما الاهتمام بأحد الأقاليم المحلية ، فهذا مرجعه إلى أن ذلك الإقليم تأثر بصورة مكثفة - إن لم تكن متفردة - بهذا الحدث .

وعند إسقاط ذلك على مدينة رشيد ، نجد أنها تأثرت بحدثين سياسيين خارجيين متعاقبين ، ينتميان إلى الفكر الاستعمارى، وهما :

أولا - الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ .

ثانيا - حملة فريزر عام ١٨٠٧ .

وإذا كانت مصر - بصفة عامة - قد تأثرت بالحملة الأولى ، فإن رشيد - مع الإسكندرية - تأثرت - بصفة خاصة - بالحملة الثانية، بينما أن باقى الأقاليم المصرية تأثرت بطريق غير مباشر.

والواقع أننى لن أسرد وقائع تاريخية تمس رشيد أثناء حملة فريزر، ولكننى سأحاول تحليل المعلومات التى جاءت فى بعض المراجع التى تعرضت لهذا الموضوع، عن طريق النفاذ إلى «روح المكان» لنستشف «عبقريته الذاتية» التى تحدد شخصيته الكامنة.

ولكى يتسنى لى ذلك ، كان لا بد من التعرف على بعض الحقائق التى تخص المنطقة التى نحن بصدد الاحتفاء بمرور مائتى عام على مقاومتها للحملة الانجليزية الشهيرة.

كما لم يكن هناك بُد من عقد بعض المقارنات بين رشيد وبين دمياط ، نظراً لأن من كتبوا عن الأخيرة تعرضوا للأولى بطريقة أو بأخرى .

لقد فطنت مصر إلى استخدام مياه النيل فى رى أراضيها منذ فجر تاريخها، وتتبعت نظامًا استمر منذ ذلك العهد حتى القرن التاسع عشر هو نظام «رى الحياض»، وفيه يُترك ماء النهر فى فصل الفيضان ليغطى أراضى الحياض بعمق متر ونصف المتر فى المتوسط ولمدة ٤٥ يوماً ، حتى إذا ما انخفض منسوب الماء فى النهر عادت مياة الحياض إلى مجراه بعد أن تكون الأرض قد رُويت استعدادًا لظمأ طويل، وبعد أن يكون

الغرين الذى حملة النهر من هضاب الحبشة قد أمّد التربة بخصوبة جديدة يعوّضها عما فقدته فى العام السابق.

وكانت أراضى الصعيد - فيما عدا الفيوم - وأراضى الأجزاء الجنوبية من الدلتا والتى يحدّها خط تقريبى يمر بالدلنجات ودمنهور وإيتاى البارود وشبراخيت ودسوق وقلين والمحلة الكبرى وطلخا والمنصورة والسنبلاوين وفاقوس وبردين وبلبيس، مقسمة إلى أحواض تفصل بينها سدود ترابية تمتد بين جسر النهر وحافة الصحراء، وكانت تغذى هذه الأحواض ترع يمدها النيل بالماء فى زمن الفيضان، فإذا جاء الجفاف وهبط منسوب النهر أصبحت هذه الترع أعلى من منسوب النهر فلا يصل إليها الماء. ولم تكن هناك قناطر تنظم العلاقة بين النهر والترع ، اللهم إلا سدود من الحجارة تُزال سنويًا حينما يُراد لمياه الفيضان أن تدخل إلى الأحواض، ويكون هذا عادة حوالى الأسبوع الثانى من شهر أغسطس، وبعد شهر ونصف يُصرَّف الماء، ويتأخر التاريخ كلما اتجهنا نحو الشمال، ولكل مجموعة من الأحواض مخرج يحمل الماء الذى استنفذ أغراضه إلى مجرى النهر بعد أن ينخفض فيه الماء .

أما شمال خط الدلنجات - بلبيس ، فأرض مستوية السطح قد تنخفض أحيانًا عن مستوى سطح البحر فتتكون فيها البحيرات ويقترب الماء الباطنى من السطح، وهو ماء تزيد فيه الأملاح زيادة كبيرة تؤدى إلى فساد التربة فتفقد خصوبتها، إلا ضفاف فرعى رشيد ودمياط، وهما أشبه بواحات مستطيلة فى وسط تلك الجهات المقفرة[١] وبالتالى ، فالحديث عن مدينة رشيد يجرّنا إلى مناقشة بعض النقاط :

النقطة الأولى - أن فرع رشيد يبلغ ٢٣٩ كيلو متر، بينما يبلغ طول فرع دمياط ٢٤٥ كيلو متر .

ومتوسط اتساع فرع رشيد ٥٠٠ متر، مقابل ٢٧٠ متر لفرع دمياط ، هذا الاتساع لفرع رشيد جعله يرتفع عن مستوى الأرض أثناء الفيضان بنسبة تتراوح بين متر ونصف ومترين فقط ، بينما يرتفع فرع دمياط بنسبة تتراوح بين مترين ونصف وثلاثة أمتار[٢] .

ولذلك ففى محاولة لإلقاء الضوء على بعض المعلومات التى تضمنتها بعض المراجع ، نجد أن بعضها ذكر أن بوغاز رشيد كان شديد الخطورة على الملاحة، وأرجعه إلى ضحالة مياه هذا الفرع[٣] من النيل .

كما أن مراجع أخرى ذكرت أن خطورة بوغاز رشيد على حركة الملاحة حرمت المدينة من أن تقوم بدورها الهام مثل دمياط ، ولم يفسر لم[٤]!!

بل وذكرت أن البوغاز هو عبارة عن مدخل شديد الضيق يصل إلى المجرى مخترقًا كتل الرمال مكونًا ذراعًا عند مصب النيل ، وهذه الكتل الرملية قد نتجت عن ترسيبات النهر حيث يفقد سرعته عند اقترابه من البحر.[٥]

وهذا كلام تنقصه الدقه العلمية:

أولا - لأن أول ما يرسّبه النهر من حمولته العالقة هو أثقلها وذلك فى أحباسه العليا ، أو على جانبى شطوطه المباشرة حيث التيار أقوى ما يكون، أما إذا أراد أن يمضى بحمولته بعيداً إلى مدى رحلته أو حتى حواف الصحراء، فإنه لا يمكنه أن يحمل إلا أخف وأقل حمولته.

ولما كانت ذرات الرمل الخشنة الأكبر حجمًا هى الأثقل وزناً، فضلاً عن أنها محمولة غالباً أقرب ما تكون إلى قاع النهر، فإنها هى التى تترسب أولاً ومبكرًا، سواء فى الأحباس العليا أم على الشاطئين المتصلين بالقاع والمتاخمين له مباشرة . عكس هذا، نجد أن ذرات الطين صلصالية دقيقة ناعمة، فيستطيع النهر أن يحملها لمسافة أطول وأبعد، ومن ثم تزداد نسبتها فى الأحباس السفلى وتجاه حوافى الصحراء.

ففى أقصى شمال الدلتا ترتفع نسبة الطين والصلصال إلى أقصاها من ٨٠ إلى ٩٠٪ ولذلك تصل كثافة وتماسك التربة الطينية إلى حد اللزوجة وعدم النفاذية تقريبًا[٦].

ثانيا - أن فرع رشيد لم يكن ضحلاً فى مياهه كما قيل، بل العكس من ذلك هو الصحيح .

فالمياه التى تنقسم على الفرعين بعد هجرتها من القاهرة تكاد تكون متساوية ، لكنها لا تلبث أن تنحاز بصورة طاغية لفرع رشيد،فبعد بضعة كيلو مترات كان يخرج من

فرع دمياط فرع شلقان ليصب فى فرع رشيد ، وبعد نحو ٢٠ كيلو متر أخرى يفعل بحر الفرعونية الشئ نفسه[٧] فتستقطع حوالى ١/٣ مياه فرع دمياط فى فصل التحاريق وتحوّلها إلى فرع رشيد[٨].

وبجانب ذلك الدليل الجغرافى ، يسوق لنا «لينان دى بلفون»[٩] الدليل التاريخى، فيذكر أن محمد على باشا بعد أن اعتلى أريكة الحكم فى مصر ، وبالتحديد فى عام ١٨٣٣ أصدر أوامره بإغلاق فرع رشيد عند بلدة القراطيين بالأحجار حتى تتحول مياه الصيف إلى فرع دمياط فتتغذى الترع الصيفية دون حاجة إلى تعميقها كل عام ليتفرغ الفلاحون للزراعة، ولكنه تجنّب تنفيذ هذه الفكرة بعد نصيحة «دى بلفون» بأن ذلك سيسبب اضطرابًا فى مجرى النهر خاصة أثناء الفيضان، بجانب عدم حصول ترعتى المحمودية والخطاطبة على حصتيهما من المياه ، علاوة على تعذّر الملاحة بفرع رشيد ، وأخيرًا عدم حصول الإسكندرية على ما يكفيها من مياه الشرب. ولذلك اقترح على الباشا إقامة قناطر ذات عيون عند رأس الدلتا تتحكم فى تصرفات النهر. [١٠]

ومع ذلك ، فقد ظلت هناك مجموعة ضخمة من الترع فى شرق ووسط الدلتا تخرج من فرع دمياط.

ويعود ذلك إلى حركة الرفع العامة أو النهوض التى أصابت شرق الدلتا فى العصور الوسطى، فأصابت فرع دمياط بنوع من الاختناق.

أما فرع رشيد ، فلم تكن تخرج منه أية فروع سوى البحر الصعيدى قرب مصبه، بينما يتلقى نهايات كثير من الترع ، ولذا كانت ماؤة أكبر باستمرار.

ولهذا أطلق «ويلكوكس»[١١] على فرع رشيد «وريث النيل الحقيقى فى الدلتا»[١٢]

أما فيما يتعلق بالدور الذى لم تلعبه رشيد فى مقابل دور ميناء دمياط، فذلك مردّه إلى أن ميناء رشيد لم يكن مستقلاً بذاته ، بل كان تابعًا لميناء الإسكندرية، أو نستطيع القول إنهما كانا مكمّلان لبعضهما. فكانت مدينة الإسكندرية تتغذى بالماء العذب عن طريق ترعة «شيديا» التى كانت تخرج من فرع رشيد والتى سميت فى العصور الوسطى «بالخليج الناصرى» وفى عهد محمد على «بالترعة المحمودية» وبهذا

استطاعت الإسكندرية أن تتصل بالبحر الأحمر الذى كان الطريق الرئيس لنقل التجارة بين الشرق الأقصى وموانىء البحر المتوسط ، وبذلك أصبحت الإسكندرية مركزًا صالحًا لنقل تجارة الهند والشرق إلى أوروبا.

وفى منتصف القرن الرابع عشر قام القبارصة - كنوع من الحملات الصليبية - بتخريب مدينة الإسكندرية ، فضعف شأنها وانقطعت الملاحة بينها وبين داخل البلاد بسبب جفاف ترعة شيديا ، وبذلك تحولت تجارتها إلى ميناء دمياط الذى تفوق وأصبح ميناء مصر الأول[١٣].

وعندما تم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح[١٤] أصاب الإسكندرية ما أصاب مصر كلها من إهمال ، وضعفت صلتها بالخارج بسبب منافسة ميناء دمياط لها فى التجارة مع الشام.

وقد ظل ميناء دمياط محافظًا على المكانة التى اكتسبها ـ على حساب الإسكندرية ورشيد ـ حتى السنوات الأولى من حكم محمد على[١٥].

وهذا يدعونا إلى إلقاء الضوء على زراعة الأرز وتجارته. وكنت أتساءل بينى وبين نفسى عن المبررات التى تجعل السفن الفرنسية تلجأ إلى ميناء دمياط لتهريب الأرز إلى أراضيها وخاصة إلى مرسيليا ، بالرغم مما هو معروف عن أن ميناء دمياط كان يخدم الشام واسطنبول، بينما كانت الإسكندرية ورشيد تخدمان البلاد الواقعة غربيهما ، فلماذا تلجأ فرنسا إلى دمياط ؟ ولماذا تلجأ إلى التهريب؟!

فعندما حدد علماء الحملة الفرنسية خطًا من الرحمانية إلى المنصورية قُسِّمت به الدلتا إلى إقليمين:

الشمالى وفيه لا يختلف مستوى النيل فى الفيضان عنه فى التحاريق إلا بحوالى متر تقريبًا، والجنوبى وفيه يصل الفارق إلى أكثر من ثمانية أمتار.

ولوحظ أن الإقليم الشمالى هو منطقة زراعة الأرز بينما الجنوبى هو منطقة زراعة القمح والشعير والكتان .

وهو ما يشير إلى أثر هذه النسب على الزراعة، ويثير بذلك نقطة حيوية أخرى ، وهى أن الرى أصعب فى الأحباس العليا وأسهل فى السفلى، بينما أن الصرف على العكس من ذلك فهو أسهل فى العليا وأصعب فى السفلى[١٦].

ولكن لما كانت دمياط قد تبوأت مكانة مرموقة، فقد كانت ترد إليها الحبوب من سائر أنحاء الدلتا ، كما لعب تجار دمياط دورًا هامًا فى شراء الأرز من مناطق إنتاجه فى الدلتا وفارسكور(١٧)

كما أن إنشاء جمرك رشيد الذى أقامه المماليك، لم يكن لتقرير رسوم جديدة ، بقدر ما كان الهدف منه هو التحقق مما إذا كانت لم تُرتكب أية عمليات خداع أو تدليس فى جمركى بولاق والإسكندرية ، وهناك يتم التحقق من أن كمية ونوع السلع قد جاءتا مطابقتين للمخالصات الجمركية التى كان لا بد من إبرازها(١٨).

بالإضافة إلى أن الإدارة المركزية فى مصر رأت أن من مصلحتها غض الطرف عن تصدير الأرز إلى أوروبا بالرغم من تحريم الدولة العثمانية ذلك، وهو ما أطلق عليه آنذاك «التسويات الودية» بين تجار مرسيليا ورجال الجمارك فى دمياط.

وضاعف من هذا النشاط ازدياد قوة الإدارة المحلية فى مصر فى القرن الثامن عشر بعلو نجم المماليك وقدرتهم على تجميد قرارات الإدارة العثمانية التى تتعارض مع مصالحهم الخاصة لا سيما مع ضعف السيطرة العثمانية على الإدارة فى مصر فى فترات طويلة من القرن الثامن عشر وأيضا خلال القرن التاسع عشر.

هكذا حدث الرواج النسبى لتجارة الأرز بين دمياط وأوروبا(١٩).

ولكن لماذا كان التهريب لصالح فرنسا بالتحديد ؟ فذلك لأن التجارة الأوروبية - حتى مرحلة ما قبل الحملة الفرنسية مباشرة - كانت واقعة بدرجة كبيرة فى يد الفرنسيين(٢٠).

كما أثير تساؤل آخر :

كيف أن دمياط تميزت بالنوعية الممتازة من الأرز «الأرز المنزلاوى»(٢١) طالما أن شمال الدلتا كله يتعرض لنفس الظروف المناخية والجغرافية؟ وأكثر من هذا ، أن نقص مياه فرع دمياط يمثل فرصة لمياه البحر فتتوغل فيه فى فصل الصيف (فصل زراعة الأرز) ، إلى ما وراء فارسكور وتفسد مياهه بملوحتها فتصبح غير صالحة للشرب ولا للزراعة (٢٢)

وهذا ما شكا منه زّراع الأرز بالدقهلية إلى محمد على الذى أمر بسد فم الفرعونية حتى لا تذهب مياه الصيف إلى فرع رشيد فتتأثر زراعتهم لذلك المحصول الهام[٢٣].

ومن ناحية أخرى فإن هناك ما يرجِّح النسبة الكبيرة لزراعة الأرز فى رشيد بأن عمال المنصورة (وهى الأقرب إلى دمياط) وبلبيس كانوا يذهبون إلى رشيد لحصاد الأرز فتُدفع أجورهم نقداً ويعُطون مقابل حصد المحصول وربطه فى حِزم ونقله إلى الأجران[٢٤].

خاصة إذا عرفنا أن عدد سكان رشيد إبان الحملة الفرنسية كان ثلاثة عشر ألفاً فقط بينما كان عدد سكان دمياط ثلاثين ألفاً، وبذلك احتلت الأولى المركز الثالث من حيث الكثافة السكانية على مستوى القطر المصرى ، بينما مثلت الثانية المركز الثانى بعد القاهرة التى كانت تضم (٢٦٣ر٠٠٠) مائتين وثلاثة وستين ألف نسمة[٢٥].

وبالتالى ، كانت ملوحة الأرض بدمياط سببًا رئيسيًا لهجرة كثير من سكانها إلى رشيد فى موسم حصاد الأرز . بالإضافة إلى انتشار صناعة ضرب الأرز فى غرب الدلتا[٢٦].

ويتمثل التساؤل الأخير فى أنه إذا كان بوغاز رشيد تحفّه الخطورة التى تحتاج إلى مهارة خاصة لعبوره ، فكيف أمر «على بك السلانكلى» حاكم رشيد أثناء الحملة بإبعاد السفن التى يستخدمها الأهالى فى عبور النيل إلى الضفة الشرقية ، والذى خشى من تفكير الجنود أو الأهالى فى الانسحاب من رشيد كما فعل جنود حامية الإسكندرية[٢٧].

على أية حال ، فقد علّق ميست Misset قنصل بريطانيا العام فى القاهرة على انتصار المصريين فى معركة رشيد : بأن «العالم بأسره ستعتريه دهشة بالغة حين يسمع أن مدينة مثل رشيد قد استعصت على جيش أوروبى حديث»[٢٨].

فقد كان يعتبر أن الحملة عبارة عن صراع بين الحضارة الميكانيكية والحضارة البدائية ، أو بين المدفعية المدّرعة وبين القوس والسهم ، ومن ثم ، فقد كان الفارق رهيبًا والنتيجة محتومة[٢٩] من وجهة نظره .

لكن الواقع جاء مخيبًا لآماله وآمال البريطانيين جميعًا.

الهوامـش

١- محمد محمود الصياد (دكتور) / النيل الخالد . المكتبة الثقافية عدد ٥٣ وزارة الثقافة والإرشاد القومى . الإدارة العامة للثقافة -١٥ يناير ١٩٦١ ، ص ١٠٢ - ١٠٥ .

٢- جمال حمدان (دكتور) / شخصية مصر . دراسة فى عبقرية المكان، جـ١، دار الهلال ١٩٩٤، ص ٦٢١ - ٦٣٣ .

٣- عبد الحميد حامد سليمان (دكتور) / تاريخ الموانى المصرية فى العصر العثمانى . دورها السياسى ونظمها الإدارية والمالية والاقتصادية - سلسلة تاريخ المصريين عدد ٨٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥، ص ١٩٥، ١٩٦، ٢٦٥.

٤- نيفين مصطفى حسن (دكتور)/ رشيد فى العصر العثمانى . دراسة تاريخية وثائقية، منشورات دار الثقافة العلمية ، سلسلة المكتبات والمعلومات، الإسكندرية ١٩٩٩، ص ٦٧.

٥- نفســه .

٦- جمال حمدان (دكتور) / المرجع السابق ، ص ٧٠٢ ، ٧٠٣.

٧- نفســه ، ص ٦٦٩، ٦٦٨، ٦٣٣ .

٨- محمد محمود الصياد (دكتور) / المرجع السابق ، ص ١٠٩.

٩- لينان دى بلفون : مهندس فرنسى ، وجغرافى ، ومستكشف ، ولد عام ١٧٩٩، وصل إلى مصر عام ١٨١٨ ، ودخل فى خدمة محمد على ، استكشف النيل الأبيض ، وساهم فى تصـميم بعض مشـروعـات الـرى فى عـهد محمد على ، كان تابعًا «لسان سيمون» Saint Simon ، وبالتالى أثبت جدوى إنشاء قناة السويس ، توفى عام ١٨٨٣ .

آرثر جولد شميت (الابن) قاموس تراجم مصر الحديثة . ترجمة وتحقيق د. عبد الوهاب بكر، المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومى للترجمة العدد٥٢١ - ط١، ٢٠٠٣، ص ٦١٢،٦١٣

١٠- على شافعى بك / أعمال المنافع العامة الكبرى فى عهد محمد على الكبير، الذكرى المئوية للمغفور له محمد على الكبير . الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، دار المعارف بمصر ١٩٥٠ ، ص ٤٧، ٤٨.

١١- «وليام ويلكوكس» ، مهندس ، ومبشّر ، ومتفقه فى اللغة العربية . ولد فى الهند عام ١٨٥٢ لأب كان يعمل مهندساً بشركة الهند الشرقية . تخرج فى كلية توماسون للهندسة بالهند ، حضر إلى مصر عام ١٨٨٣ ، وأصبح مفتشاً للرى لمديريات وسط الدلتا. أشرف بصفته مديراً للخزانات أثناء تسعينيات القرن التاسع عشر على الأبحاث والتقديرات التى أدت إلى إنشاء سد أسوان وقناطر أسيوط . لمزيد من التفاصيل أنظر : آرثر جولد شميت / المرجع السابق ، ص٧٦٩، ٧٧٠.

١٢- جمال حمدان (دكتور) / المرجع السابق ، ص ٦٣٣،٦٣٤.

١٣- جمال الدين الشيال (دكتور) / مجمل تاريخ دمياط سياسياً واقتصادياً. مكتبة الثقافة الدينية، ط١، سنة ٢٠٠٠، ص ٤٦،٤٧.

١٤- لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع أنظر: فاروق عثمان أباظة (دكتور) / أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر . دار المعارف (د.ت)

١٥- حسن سيد حسن (دكتور) / ميناء الإسكندرية . دراسة فى جغرافية النقل البحرى، دكتوارة غير منشوره، كلية البنات جامعة عين شمس ١٩٨٢ ، ص ٢٠، ٢٥ ، ٢٦.

١٦- جمال حمدان (دكتور) / المرجع السابق ، ص ٦٧٠.

١٧- عبد الحميد حامد سليمان (دكتور) / المرجع السابق ، ص ٢٨٣

١٨- زهير الشايب (ترجمة) وصف مصر . الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر، النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية، جـ٥، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٢ ، ص ١٧١.

١٩- محمد عفيفى (دكتور) / المصالح الفرنسية فى ميناء دمياط فى القرن ١٨، المجلة التاريخية المصرية العدد ٣٧ ، ١٩٩٠، ص ١٧٢.

٢٠- جون مارلو / تاريخ النهب الاستعمارى لمصر من الحملة الفرنسية إلى الاحتلال البريطانى ١٧٩٨ - ١٨٨٢ . ترجمة / د. عبد العظيم رمضان - مكتبة الأسرة الأعمال الفكرية ، ٢٠٠٣ ، ص ٣٢.

٢١- محمد عفيفى (دكتور) / المرجع السابق ، ص ١٧٠.

٢٢- محمد محمود الصياد (دكتور) / المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

٢٣- على شافعى بك / المرجع السابق ، ص ٢٣.

٢٤- زهير الشايب (ترجمة) / وصف مصر (الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر) جـ٤ ، ص ٥٦،

٢٥- جمال الشيال (دكتور) / المرجع السابق ، ص ٥٧ .

٢٦- عبد الحميد حامد سليمان (دكتور) / المرجع السابق ، ص ٢٤٢.

٢٧- عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) / عمر مكرم . بطل المقاومة الشعبية . سلسلة أعلام العرب ، العدد ٦٧ - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧، ص ١٨٧.

٢٨- نفسه ، ص ١٨٨ .

٢٩- جمال حمدان (دكتور) / إستراتيجية الاستعمار والتحرير، ط٢، مكتبة الأسرة، الأعمال الفكرية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠ ، ص ١٢٩.

